عبد الرحمن بن عبد الستار:

الشاعر الإسلامى الوجدانى عبد الرحمن بن عبد الستار الشهير برحمان بابا أكثر شعراء الأفغان شهرة وقبولا، وأكثرهم تقديرا واحتراما، ليس فى الأفغان شخص لا يعرف عبد الرحمن الشاعر الروحى المحبوب، ولا يطرب لشعره.. يقوم الخطباء والدعاة فوق المنابر بتقديم أبيات شعره كمواعظ ونصائح دينية مؤثرة، والنساء يستشهدن بأبيات شعره عند تقديم نصحهن للشباب والشابات، ويستشهد الشيوخ والأعيان أثناء مؤتمرات المصالحة بشعره.. وشعره ينبوع فياض للمعانى والمشاعر الروحية التى يبحث عنها أهل الزهد، والمعرفة، والعرفان، كما أنه مصدر من مصادر المبادىء السياسية والمفاهيم القومية التى يبحث عنها رجال السياسة، وزعماء القبائل وأعيانها فى الديار الأفغانية، ويتغنى الشباب بقصائده التى فيها أسرار ورموز ومعان لكل طائفة من طوائف الأفغان المتعددة من الروحيين، والسالكين، والبسطاء، والسذج، والمثقفين، والعباقرة، والكتاب، والمصنفين، والأثرياء، والفقراء، والدراويش، الذين يحاولون رسم الطريق فى دروب الحياة المتشعبة للوصول إلى معان للحياة، لأنهم يرون وراء كل كلمة من شعره مجهولا يستحق الاكتشاف، ويرون فى عباب كل أنشودة سرا يمكنهم من العثور على أسرار الحياة ورموزها. وفى رحلتهم هذه بين صفحات الديوان وسطوره وكلماته يصلون إلى مطالب جميلة مطربة، وإلى معان رائعة، وإلى أثر خالد فسيح، فيحسون بحالة من النشوة والوعى والعشق الساحر، لم يكونوا

ليحسوا بها من قبل، فتتحرك فى قلوبهم ووجداناتهم وضمائرهم أشواق الإنسانية، ومشاعر الفطرة الآدمية فى صفاء وشوق ووئام، إن الكل يحترم شخصيته، ويقدر شعره، وهو عزيز مجلل فى نظر الجميع، وهو شاعر الأفغان الموهوب، وبلبلهم المغرد المطبوع، ومرشدهم المتبوع[1]

مولده:[2]

ولد عبد الرحمن بابا بن عبد الستار على الأرجح سنة ١٠٤٢هـ/ ١٠٠١هـ ش/ ١٦٢٢م فى بلدة " بهادر كلى - قرية بهادر " ونشأ وترعرع فى بلدة " هزار خانى - ألف بيت " وتوفى بها سنة ١١٢٨هـ/ ١٠٨٧هـ ش/ ١٧٠٨م[3]. وتم دفنه فى المقبرة التاريخية الشهيرة التى تضم قبور عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء والملوك والقواد المشهورين، والشخصيات التاريخية

---

(١) مجلة البشتو عدد أكتوبر ١٩٨٧م، أكاديمية البشتو، جامعة پشاور، مقال بقلم الأستاذ سيد تقويم الحق كاكا خيل، ومقدمة ديوان عبد الرحمن ٣٢، أكاديمية البشتو، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م.

(٢) عبد الحى حبيبى: پشتانه شعراء ١: ١٩٣، ومير عبد الصمد خان: شاعر إنسانيت رحمان بابا ١٣ مقدمة عبد الحليم أثر، وديوان عبد الرحمن بابا ٥ - ٩ تحقيق لفيف من علماء الأفغان، ومجلة البشتو عدد اكتوبر ١٩٨٧م، وديوان عبد الرحمن بابا ٦ - ١٣ مقدمة سيد رسول رسا، وديوان عبد الرحمن بابا ٣٣ - ٣٥ مقدمة مولانا عبد القادر.

(٣) محمد آصف صميم: فهرس أعلام ديوان عبد الرحمن بابا ١٤ المقدمة، ومقدمة ديوان رحمان بابا ٣٥، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م.

الأخرى[1] فى التاريخ الأفغانى. وقد رثاه تلميذه الشاعر محمد يونس خان بهذه المقطوعة الشعرية[2]:

منذ أن ظهر الفراق والهجران مع الحب
فإن أملى أصبح علامة ألم فى قلبى
إن مجلس الأحباب الطيبين فصل الربيع
حين هاجمه الفراق أصبح فصل الخريف
فالذى كان فى التقدير والنفاسة درر من درر البحر
فقد أصبحت المقبرة الآن صدف لتلك الدرر
والذى أشرق كالشمس فى مشرق المودة
فقد أغرب واختفى فى مغرب الفراق والهجران
وبما أن رياح الفراق والتباعد تهب فى العالم هائجة
فقد أصبح شكلى خوفا من ذلك كشجر الصفصاف المهتز
كيف وبأية وسيلة يمكن فك قفل صمته وفتحه ؟
حين حبس الموت مفتاح لسانه وبيانه فى الداخل
من الرحمن نال عبد الرحمن فيضا وفيرا وكرما
حيث انتقل من هذه الدار واستقر ضيفا فى الدار الجديدة

---

(١) مير عبد الصمد خان: شاعر إنسانيت رحمان بابا ٧٠، الطبعة الثالثة، يشارو ١٩٨٤م.

(٢) حبيبى: پشتانه شعراء ١: ٢٠٣، ومقدمة ديوان عبد الرحمن بابا ٢٧ – ٢٨ تحقيق لفيف من علماء الأفغان.

إن المـــوت يجعـــل مـــن كريـــم الكلـــم الطيـــب بخيـــلا
بحيـث لا يرغـب قلبـه فـى كـلام، بـل يصعـب عليـه ذلـك
من كانت شهرته طيبـة فـى الملـك (البـلاد) فهـو ليـس بميت
مـاذا حـدث؟ إن كـان يعـد فـى عـداد الموتـى ويحسـب
فقـــد نـــال شـــعره بالأفغانيـــة صيتـــا وشـــهرة
فـــذاع واشـــتهر حتـــى عرفتـــه إيـــران وتـــوران
مـن الـذى سـيقوم بإنشـاد شـعر عـذب مثلـه يـا يونـس
حـين صمـت عبـد الرحمـن،وانقطـع عـن إنشـائه بـالموت

نسبه:

يرجع بنسبه إلى قبيلة مومند (مهمند) الأفغانية الشهيرة التـى كـانت شـوكة فى جنب الإنجليز مدة وجودهم فى الهند، كما كانت شوكة فى جنب المغول أثناء حكمهم فىالهنـد قبـل المستعمرين الإنجليز. فعبـد الرحمـن حسـب نظـام العشـيرة والقبيلة الدقيق بين الطوائف والقبائل والشعوب الأفغانية منذ أقدم العصور: إبراهيم خيلى، ثـم دويـزى، ثـم مومنـدى، ثـم غوريـا خيلـى، ثـم سـربنى[1] فـى القمـة. وسربن بن قيس عبـد الرشـيد هـذا هـو الجـد الأعلـى لمجموعـة كبـيرة مـن القبـائل الأفغانية، يبلغ عددها إلى ١٠٥ (مائة وخمس) قبائل[2].

---

(١) ديوان عبد الرحمن ٢ - ٤ تحقيق لفيف من علماء الأفغان،كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م.

(٢) سيد بهادر شاه ظفر كاكا خيل: پشتانه د تاريخ په رنا كـى ١٢٦٥ ومـا بعدهـا، پشـاور ١٩٦٥م/ ١٣٨٤هـ

وقد ذكره عـدد مـن الشـعراء الأفغـان منسـوبا إلى سـربن، وغوريـا خيـل، ومومند، ودويزى، من أمثال خوشال خان، ومير أحمد شاه رضوانى، وعبد القـادر خان ختك، وعبد العظيم رانيزى السواتى، ونجيب، وملا خايسته خان وغيرهم.

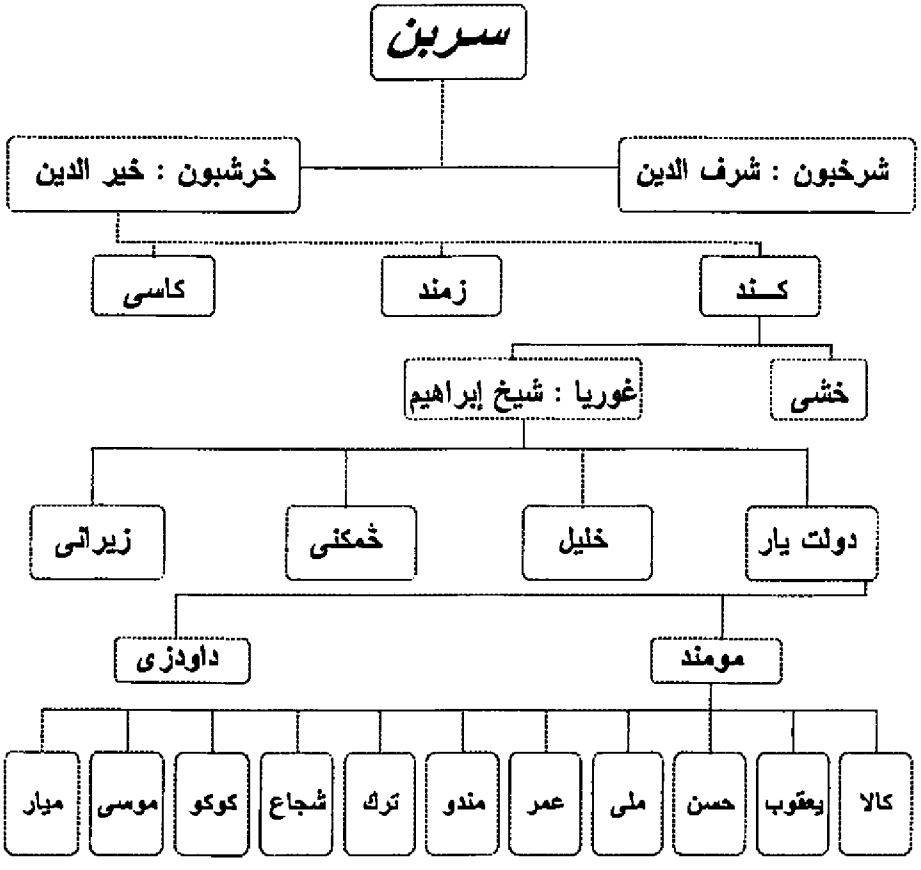

هذا رسم يوضح شجرة نسب عبد الرحمن من مومند إلى سربن

نقلا عن ديوان عبد الرحمن بابا – تحقيق لفيف من علماء الأفغان

قبائل مومند التى ينتمى إليها عبد الرحمن قد اشتركت فى حروب التحرير التى خاضها الزعيم الشاعر خوشال خان ختك ضد المغول، ومن أشهر تلك المعارك معركة "لندى كوتل" فى وادى خيبر التى اشتركت فيها كل من القبائل الصافية والمومندية معا فى سنة ١٦٧٢م وألحقت الهزيمة بالجيش المغولى، مات فيها أربعون ألفا من جيش أورنك زيب، وكان لكل من القائد أيمل خان (المومندى)[١] ودريا خان الأفريدى دورا بارزا فى تنظيم المعركة وإلحاق الهزيمة بالمعتدين. والمعركة الثانية التى انتصرت فيها قبائل مومند هى معركة "كنداب" فى سنة ١٦٧٣م، أما المعركة الثالثة فكانت فى ١٦٧٤م فى "خاپخ" وفى هاتين المعركتين انتصرت القبائل المومندية وألحقت الهزيمة بجيش أورنك زيب المغولى[٢] الذى لم يفكر بعد ذلك فى خوض معارك ضد القبائل الأفغانية، وإنما اتبع فى ذلك سياسة "فرق تسد" فى إخضاع القبائل التى لم يتمكن من إخضاعها أيضا.

وقد جاء ذكر هذه المعارك والانتصارات التى حققتها القبائل الأفغانية فى كل المصادر الأدبية، وللزعيم الشاعر خوشال خان ختك قصيدة رجزية يتغنى فيها بهذه الانتصارات للقبائل المومندية، وقد بدأها بهذا البيت من الشعر[٣]:

من أين أقبل هذا الربيع مرة أخرى
وجعل من كل أنحاء الوطن حديقة واحدة

---

(١) مير عبد الصمد خان: شاعر إنسانيت رحمان بابا ٧٧، الطبعة الثالثة ١٩٨٤م.

(٢) السير أولف كيرو: پتهان ٣٢٤ – ٣٢٥ الترجمة الأردية، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م.

(٣) كليات خوش حال خان ٢٣، پشاور، سنة .... ؟

إلا أن عبد الرحمن لا يذكر هذه البطولات التى حققها قومه من قبائل مومند التى ينتمى إليها.. هل كان صغيرا؟ أم أن الشعر الذى أنشده فيه قد ضاع، كما ضاع كثير من درر الأدب الأفغانى؟

على أننا لا نعلم عن تاريخ أسرته شيئا يذكر، والمصادر التى تتحدث عن تاريخه وتاريخ أسرته قليلة شحيحة. وهو يشبه فى ذلك كلا من الشاعر الإغريقى الملحمى الضرير هوميرس صاحب الإلياذة، والشاعر الفارسى الغنائى العفيف فى وصف مشاهد الحب حافظ شيرازى (شمس الدين محمد) والشاعر المسرحى الإنجليزى وليم شكسبير[1].

وعبد الرحمن فى ذلك كأبى الطيب المتنبى الذى انحدر من أصل عربى من أهل الكوفة فملأ الدنيا وشغل الناس، وهم لا يعرفون عن هذا الرجل إلا قليلا، ولا يعرفون من أمر جده قليلا ولا كثيرا. كذلك يحدثنا التاريخ بأن أبا جرير لم يكن فى التاريخ شيئا مذكورا بينما كان جرير نفسه من أعظم الشعراء فى عصره، وملأ الأدب وأعمره بشعره[2]. ويونس أمره شاعر تركى شهير، ولا يعلم الأتراك عن تاريخه شيئا[3].

---

(١) ديوان عبد الرحمن بابا ١٢ – ١٣ مقدمة سيد رسول رسا، پشاور ١٩٧٦م/ ١٣٩٦هـ، وديوان عبد الرحمن بابا ١٩ – ٢٠ مقدمة مولانا عبد القادر، الطبعة الثانية، پشاور.

(٢) طه حسين: مع المتنبى ١٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٦م

(٣) يونس أمره: أشعاره، المقدمة، الدار العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩١م

كل ما يمكن قوله بالنسبة لأسرته أن أسرته كانت كبيرة العدد واسعة الانتشار كما يبدو ذلك من بعض شعره[1]، وأن ابن أخته حميد كل كان شاعرا من سكان قرية " پلوسو " كما يقول ذلك المستشرق الفرنسى جمس دارمستتر[2]، وكان له ابن لم يبق من ذريته أحد كما يقول ذلك المستشرق الإنجليزى ميجر راوتى[3]، وقيل إن عزيز خان الذى ذكره عبد الرحمن فى أحد أبيات شعره كان شقيقه وقيل ابن عمه، وقيل من أقاربه، وقيل إنه كان من أثرياء بلدته[4].

وأما حالته الاقتصادية والاجتماعية فى عشيرته فإنها كانت متوسطة، لم يكن من الأثرياء ولا من المعدومين، ويمكن القول بأنه كان أقرب إلى طائفة المزارعين الذين يملكون قطعة أرض زراعية يزرعونها ويعيشون من محصولها[5]..

إن الذين يزرعون أرضهم بالأمطار والسيول
فإن عمرهم كله عذاب ومشقة[6]

---

(١) ديوان عبد الرحمن بابا ١٧، تحقيق لفيف من علماء الأفغان، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م

(٢) جمس دارمستتر: د پشتو نخوا د شعرهار وبهار ١٤٠، أكاديمية البشتو، كابل ١٣٥٦هـ ش

(٣) ديوان عبد الرحمن ٢١ - ٢٢ مقدمة مولانا عبد القادر، پشاور، الطبعة الثانية ١٩٨٧م

(٤) ديوان عبد الرحمن ١٥ - ١٦ تحقيق لفيف من علماء الأفغان كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م

(٥) مير عبد الصمد خان: شاعر إنسانيت رحمان بابا ٨٠ - ٨١، ومقدمة ديوان عبد الرحمن صفحة ١٧ تحقيق لفيف من علماء الأفغان

(٦) ديوان عبد الرحمن ١٠٧ مقدمة سيد رسول رسا، پشاور ١٩٧٦م/ ١٣٩٦هـ

سيرته:[1]

أنا عبد الرحمن أطلب الحماية من ذلك العلـم
الـذى لا يمـت إلى الديـن والعقيـدة بصلـة

تلقى عبد الرحمن ما يتلقاه فتيان أهل زمانه من علوم على يد علماء عصره.. درس القرآن الكريم والعلوم الدينية الأولية فى " بهادر كلـى " مسـقط رأسـه، ثـم ارتحل كعادة طلاب العلـم فـى عصـره إلى " سـلطان پـوره " ودرس بعـض العلـوم الإسلامية والعربية، كما أقام ردحا من الزمن فى كوهاٹ، ودرس مزيدا من العلوم الإسلامية والأدبية، ثم عاد إلى مسكنه فى " هزار خانى " ولزم منزلـه، وعـاش فيـه على طريقة الفلاسفة المتقشفين.

وبعد أن درس العلوم الرائجة فى عصـره اعـتزل النـاس، وانقطـع إلى عبـادة الله، وقد ظهر فيه منذ أوائل شبابه ميل إلى التدين والتلذذ بالتجرد الروحـى، فلمـا مر ببعض مراحل حياتـه العلميـة عـاد إلى العبـادة والتجريـد، والسـياحة الروحيـة، فنضجت شاعريته الوجدانية، وكملت مواهبه الروحية والمعنوية.

يبدو أنه قرأ بإمعان كثيرا من دواوين الشعراء الأفغان من أمثال مـلا أرزانـى وميرزا أنصارى ودولت لوانى وخوش حال خـان وغـيرهـم ممـن سـبقوه فـى قـول الشعر، كما يبدو أنه اطلع على دواوين شعراء الفارسية من أمثـال سنائى غزنـوى وحافظ شيرازى وعبد القادر بيدل وغيرهم، وقد تأثر بها وأخذ بعضا من معانيهم،

---

(١) ديـوان عبـد الرحمـن ١٢ - ١٣ مقدمـة سيد رسـول رسـا، پشـاور ١٩٧٦م/ ١٣٩٦هـ، وديوان عبد الرحمن ١٩ ـ ٢٠ مقدمة مولانا عبد القادر، الطبعة الثانية، پشاور ١٩٨٧م

وهو يضع شعره وشعر سنائى غزنوى فى منزلة واحدة من الجودة وقوة التعبير، حيث يقول[1]:

أنشد عبد الرحمن الشعر باللغة الأفغانية

وأنشد سنائى الشعر باللغة الفارسية[2]

الثبات على الإسلام، والاستقامة، والزهد فى الدنيا، وعدم التظاهر فى عبادته، وبقية أعماله من المبادىء التى سار عليها عبد الرحمن بابا و لم يرض بغير الإسلام دينا وعقيدة وسلوكا، ويدعو الله أن تكون عبادة الزهد فى الدنيا خالصة لوجهه بعيدة عن الرياء والتظاهر، وهذا البيت من شعره يدلك على شئ من زهده واستنكاره للرياء:

أنا عبد الرحمن أرغب فى الحماية من زهد فيه رياء

إن الزهد الذى يحتوى على الرياء عذاب وعقاب[3]

كان عبد الرحمن من الدعاة الهداة، ومن العلماء الحماة، يرفع صوته بالدعوة إلى الله ليجعل الديار الأفغانية معطرة بأبيات شعره الذى يحتوى على مبادىء الإسلام، وتعاليمه السامية، وقد أدرك جيدا ما للشعر من تأثير على نفوس الأفغان، حيث ينشر بينهم من خلال روائع شعره القيم الإسلامية الرفيعة، والمبادىء

---

(١) مير عبد الصمد خان: شاعر إنسانيت رحمان بابا ١٣ – ١٥، الطبعة الثالثة ١٩٨٤م، ومحمد نواز طائر: روهى أدب ٣٠٦ – ٣١٥ الطبعة الثانية، پشاور ١٩٨٦م

(٢) د رحمان بابا ديوان ١٣، تحقيق لفيف من علماء الأفغان، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م

(٣) د رحمان بابا ديوان ٣٨، طبعة پشتو تولنه، كابل. وديوان عبد الرحمن بابا ١٨٠، طبعة پشتو أكيدمى، پشاور يونورستى.

القويمة، والأخلاق المتينة، والأهداف السامية التى وضعها الإسلام، وشرحها نبى الإسلام:

رباه، شعرى الذى يجعل بلاد الأفغان معطرة
صير كل شطر منه ضفيرة من ضفائر الحسان[1]

يجمع المؤرخون على أنه كان ورعا وقورا طيب الأقوال والأفعال، ومن روح قصائده الشعرية يتجلى له أربع مزايا بارزة:

١- كان شديد التأثر بالإبداع الإلهى فى الطبيعة والكون، وأثر ذلك واضح جلى فى شعره الوجدانى، حيث أن فى ديوانه مواطن كثيرة يذكر فيها مناجاته لله، نذكر منها هذين البيتين من شعره:

رباه، إننى عاشق نورك من الأزل
و لم أبدأ ذلك ابتداء من اليوم
لو مات عبد الرحمن شهيدا بسيف عشقك
فإن عبد الرحمن قد أدى المسئولية الملقاة على عاتقه[2]

٢- ميله الشديد إلى العزلة والتقشف، والبعد عن ضجيج الناس ومتاعبهم، وقد عبر عن ذلك فى كثير من أبيات شعره، منها هذان البيتان:

ما رأيت الملك الأسفل ولا الملك الأعلى
ولا عندى خبر عن اليمين، ولا عن اليسار

---

(١) د رحمان بابا ديوان ٢٢٢، طبعة پشتو تولنه، كابل، سنة ١٩٧٧م

(٢) د رحمان بابا ديوان ١٥ - ١٦، طبعة پشتو تولنه، كابل سنة ١٩٧٧م

الماء والطعام يصلنى كالرحى فى مكانى
فى منزلى يتم سكونى، وكذلك حركتى[1]

٣- كرم سجيته وحسن خلقه، فقد أجمع الكل على نعته بسمو الخلق من رقة وإيناس، وكرم وترفع عن حطام الدنيا، و لم يكن من الذين يصطنعون التدين طمعا فى الحصول على المال أو شرف المقام، بل كان التدين طبعا فيه، يرفعه عن الشهوات والأطماع المعيبة، لذلك كان يترفع عن المدح، وكذلك عن الهجاء، ومن شعره فى ذلك قوله:

إننى أجيد فن المدح وفن الهجاء إجادة جيدة
إلا أننى لا أشعر بالرضا والسرور بمثل هذه الأمور
ليس لى إلا العشق سواء كان ذلك عيبى أو مدحى
لقد قمت بقطع العلاقات الأخرى عن الآخرين[2]

٤- شدة المؤاخذة، كان شديد المؤاخذة لنفسه، كثير البكاء والاستغفار والاستغاثة، وبالاختصار كان عبد الرحمن بابا شديد الإحساس والتأثر، كثير التأمل، ورعا تقيا، محبا، حسن الصحبة، كثير الخير، وكثير الصيام، وكثير الندامة والأسف. فلا تستغرب عن إكرام الناس له ولشعره، إذ كان أولا من العلماء، وكان ثانيا من الشعراء، وكان ثالثا من الزهاد والأتقياء، فهو صاحب منزلة قوامها الدين والعلم والزهد، والوجدان بالإضافة إلى منزلته فى الشعر والأدب.

---

(١) د رحمان بابا ديوان ٥٣، طبعة پشتو تولنه، كابل سنة ١٩٧٧م

(٢) د رحمان بابا ديوان ٤٩، طبعة پشتو تولنه، كابل سنة ١٩٧٧م

ولا عجب أن يكون عبد الرحمن أكثر شعراء الأفغان قبولا، وأكثرهم تقديرا، وأن يحتل تلك المكانة المرموقة فى عالم الأفغان. ولا عجب أن ينال كل هذه العناية من علماء الأمة الأفغانية ونقادها، لأنه أيقظ همم أفراد هذه الأمة، وهى خير أمة أخرجت للقيام بخدمة هذا الدين وقيمه السامية، ولأنه هو وغيره من شعراء طبقته قد أثاروا حركة فكرية عند الأفغان انشغلت بها وبشعره طوائف كثيرة من الأدباء والنقاد، ولا يزال محل دراسة الباحثين فى الدراسات الشعرية والأدبية.

إن فى أعماق وجدان عبد الرحمن بابا ما يمكن أن نطلق عليه تقابلا منغما بين الهدوء والثورة، بين السكون والحركة، بين الإيجاب والسلب، بين الأخذ والعطاء، بين التقبل والرفض، بين السكوت والتعبير.. إن أعماق وجدان عبد الرحمن كالبحر الذى يضم فى اللحظة الواحدة هدوء حالما، وتمخضا مخيفا.. كالسيمفونية التى تحتوى على نغمتين متناقضتين، لكنهما فى المدى البعيد متوافقتان موحدتان.. كالأضواء والظلال، والعتمة والنور. وفى أعماق وجدانه نشأت رسالته.. رسالة الحب والود، رسالة المحبة والمودة.. حبه لله ولرسوله، حبه لنفسه، حبه لقومه، محبته لبنى البشر، ومودته للكون والكائنات، إن حبه فى أعماق وجدانه عالمى فى شكله ومضمونه. إذا كان كثير من الشعراء فى البلاد الإسلامية قد وجه شعره لخدمة أهداف خاصة، فإن عبد الرحمن بن عبد الستار الشهير ببابا الأفغان قد وضع شعره وفكره ووجدانه فى أعماقه لخدمة المجتمع الإنسانى عامة، ولخدمة الإسلام بخاصة.

أساتذة عبد الرحمن وشيوخه:[1]

١ـ مولانا عبد الحق المتنى، فقد درس على يديه القرآن الكريم، ومبادىء بعض العلوم الإسلامية.

٢ـ محمد يوسف اليوسفزى، وقد درس على يديه العلوم الإسلامية والعربية.

٣ـ الشيخ محمد صديق الپشاورى، ودرس على يديه فنون الشعر الأفغانى بالإضافة إلى العلوم الإسلامية والعربية، وكان الشيخ محمد صديق من شعراء الأفغانية.

٤ـ أخوند كريم داد بن أخوند درويزه، وقد تعلم على يديه الطريقة النقشبندية الصوفية.

٥ـ العارف با لله حاجى بهادر (الكوهاتى) الذى كان مرشده فى التصوف والزهد، كما يقول ذلك مير عبد الصمد خان[2].

تلاميذ مدرسة عبد الرحمن الشعرية:

عبد الرحمن بن عبد الستار مؤسس مدرسة أدبية مستقلة. ويتميز أسلوبه وأسلوب مدرسته بأنه جامع شامل، يمثل الفطرة الإنسانية فى أحلى صورها، شعره

---

(١) محمد هوتك بن داود: پته خزانه ٩٤ – ٩٨، الطبعة الثانية، كابل ١٣٣٩هـ ش/ ١٩٦٠م، وديوان عبد الرحمن بابا ٩ – ١٢، أكاديمية الپشتو، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م، ومير عبد الصمد خان: شاعر إنسانيت رحمان بابا ١٣ – ١٥، الطبعة الثالثة ١٩٨٤م

(٢) شاعر إنسانيت رحمان بابا ٨٠ الطبعة الثالثة ١٩٨٤م

ينبع من أعماق قلبه، ويعبر عن خوالجه وخواطره وأشواقه، ولا يخلو من الأفكار القومية، وفى شعره الخلقى والاجتماعى لا يخرج عن التقاليد الأفغانية، وفى عالم التصوف والعرفان يميل إلى الجانب العملى، وشعره فى العشق يتموج بالمشاعر والجذبات والعواطف الحادة. ولمدرسته فضل إضافة بعض الجوانب الأدبية والفنية إلى الأدب الأفغانى، وفيما يلى بعض مزايا مدرسته الأدبية:

١- أسلوب مدرسته الأدبية يرحب بإلهام الروح، ولا يهتم كثيرا بالمادة وتلوثها المادى، وهو فى شعره يحاور عالم الغيب، ويؤمن بقوة على أن ينبوع الفيوضات والتجليات الروحية هو ذلك العالم.. عالم الغيب عالم ما وراء الطبيعة، لا عالم الشهادة..

٢- إن الشاعر فى أسلوبه وأسلوب مدرسته يهرب بعيدا عن المادة وكثافتها الملوثة بالصراعات والتشجنات، وينتقل إلى ذلك المكان الذى كله سلام ووئام، هدوء واطمئنان، لا توجد فيه فوضى هذا العالم المادى وضوضاؤه، وسيئاته ومشاكله التى يجب على الشعراء أن ينقدوها، ولا يلوثوا بها أنفسهم، بل عليهم أن يتبرأوا منها براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام..

٣- ولعبد الرحمن ومدرسته الأدبية شخصية شعرية عالية فى أدائه وتصويره وتعبيره الشعرى عن المشاعر والعواطف، وفى تصويره العفيف للعشق، فأسلوبه وأسلوب مدرسته فى كل ذلك مثالى يتميز بالسلاسة والرصانة والسهولة، والبعد عن الإبهام والإيهام والغموض من المزايا الطيبة فى شعره، وفى شعراء مدرسته الشعرية،وهو يختار لشعره ألفاظا وعبارات بسيطة سهلة بعيدة عن التعقيد والالتواء،ويحاول أن يصور فيها الفوائد الروحية والاجتماعية واحترام الإنسان

وإنسانيته، وهـذا أحـد أسباب قبـول شـعره بـين الطبقـات المختلفـة مـن طبقـات الأفغان..

٤- وقد صور هو وأتباع مدرسته المتميزة الحنين إلى العشـق والحـب الإلهـى فى فنون الغزل، والقصيدة القصـيرة، والرباعيـة والتخميـس، وفـى غـير ذلـك مـن الفنـون الشـعرية، فقـد تنـاول فـى هـذه الفنـون الأربعـة العشـق والحـب، والمحبـة والأخلاق والسلوك بكثرة لافتة للنظر، مثيرة للانتباه، وكأنهـا مدرسـة يتعلـم فيهـا تلاميذ مدرسته هذه الموضوعات فى تلك الفنون والأقسام القولية فى الشـعر، وقـد ألبسها حلة قشيبة من البيـان السـاحر الأخـاذ، والمشـرق الفيـاض.. وبالإضافـة إلى ذلك فإن فى شعره هيبة العشق الإلهى، وسكينة الزهد، ووقار العلماء..

٥- وفى العشـق، والنوبـات التواجديـة، والتـأمل فـى الجمـال تظهـر ينـابيع الحكمة من قلبه على لسانه، وكان يميل فى ذلك إلى الواقعية مع قلة الطعـام، وقلـة المنام، وقلة الكلام، والاعتزال عن الناس، وكان لا يقيد نفسه بالخيـال إلا قليـلا أو نادرا، ومهما حاولنا غربلة الأخبار القليلة التى يستنبطونها مـن شـعره عـن تقشـفه فإننا لا نرى محيصا عن القول بأن الرجـل كـان صوفيـا، وكـان يسـلك فـى ذلـك طريقة أهـل الـورع والزهـد، ومقطوعاتـه الشـعرية تنضـح بذلـك نضحـا لا يمكـن إنكاره.

٦- إن مدار الحياة وأساسها فى نظره هو العشـق وصفـاؤه، والإلهـام الإلهـى وتجلياته النورانية، وهو يفضل اليقين على العقل، والإيمان على الفلسـفة، والأذكـار على الأشعار، وأشعاره لا تخرج عن أذكاره. فرجـل كشـاعرنا عبـد الرحمـن كثـير الخلوة والتأمل، شديد الإحساس والتـأثر، كثـير الأذكـار، كثـير الاسـتغفار، كثـير

الخير، لا يستغرب أن تفيض نفسه بقصائد العشق والوجد والهيام، وأن ينال من مواطنيه، ومن تبعهم جميل الذكر والتقدير والإكرام، وأن يستقر فى قلوب الناس مدى الأيام، وأن يسلك عدد كبير من الشعراء مسلكه فى الشعر، وأسلوبه فى التصوير والتعبير..وفيما يلى عدد من تلاميذ مدرسته الشعرية:

١– محمد يونس خان بن نور محمد خان:

من سكان وادى " خيبر " الشهير، شاعر، ناثر، صاحب ديوان شعر، درس العلوم والفنون الشعرية على يدى عبد الرحمن بن عبد الستار، وأنشد الشعر على منواله وأسلوبه، يتحدى فى شعره حتى الزعيم الشاعر خوشال خان ويتعالى عليه كأستاذه فى جودةالشعر وإجادته.وكان يشتهر بالإضافة إلى كونه شاعرا وعالما بكرم الضيافة،وحسن الخلق، واستقامته. وله مرثية رثى فيها أستاذه عبد الرحمن بن عبد الستار عند وفاته[1].

قارن بين هذين البيتين من شعر الشاعرين ليتضح لك تأثير الأستاذ فى شعر تلميذه حيث يقول عبد الرحمن:

أنا عبد الرحمن سعيد بمرض العشق إلى حد
بحيث لا غرض لى فى البحث عن الدواء

---

(١) محمد هوتك بن داود خان: پته خزانه (الكنز المكنون) ١١٦، الطبعة الثانية، كابل ١٣٣٩هـ ش/ ١٩٦٠م. وعبد الحى حبيبى: پشتانه شعراء (الشعراء البشتون) ١: ٢٠٢، كابل ١٣٢٠هـ ش.وراجع ص ١٩ من هذا الكتاب.

وقد تناول التلميذ محمد يونس خان هذا المعنى نفسه فى هذا البيت من شعره حيث يقول:

إننى سعيد أن أكون مريضا بآلام عشقك أيها الحبيب
بحيث لا غرض لى أبدا أن أبحث عن الدواء

٢- ملا شير محمد الهوتكى:[1]

من مواليد كندهار، عالم فاضل، وشاعر قدير، قضى مدة من عمره فى هرات، وفى بعض المدن الإيرانية، واشتغل بالتدريس والتأليف فى مدينة كندهار مسقط رأسه، من معاصرى الهوتكيين والصفويين. ومن الشعراء الأقدمين فى كندهار، ومن مؤلفاته أسرار العارفين، يتناول فيه العقائد الإسلامية، والفقه الإسلامى، وأصول الفقه، منظوم، ومتأثر فى نظمه بمدرسة عبد الرحمن الأدبية. ومن مؤلفاته أيضا " تجويد أفغانى " منظوم أيضا، ونظمه ينتمى إلى نظم هذه المدرسة وإلى نظم مؤسسها عبد الرحمن..

٣- صديق (محمد صديق):[2]

شاعر فياض من شعراء مدرسة عبد الرحمن الأدبية المجهولين، يسير فى الشعر سيره، ويسلك طريقه، ويتبع أسلوبه، ويبدو من شعره أنه كان من الشعراء

---

(١) عبد الحى حبيبى: پشتانه شعراء ١: ٢١٢ – ٢١٥، طبعة كابل ١٣٢٠هـ ش

(٢) عبد الحى حبيبى: پشتانه شعراء ١: ٣٠٨ – ٣٠٩، وديوان رحمان بابا ٩ – ١٥، المقدمة، أكاديمية البشتو، كابل ١٣٥٦هـ/ ١٩٧٧م

السكارى فى العشق الإلهى، ومن هنا يرى نفسه فى ذلك أرفع منزلة، وأعظم قدرا من كل ما وسع هذا الكون من مخلوقات وكائنات. إنه شاعر فياض، ويفيض شعره من ينبوعه على منوال عبد الرحمن. وبعض من موضوعاته الشعرية تنظر إلى موضوعات أستاذه عبد الرحمن وفنونه الشعرية.

٤- غفور (عبد الغفور):[1]

غفور (عبد الغفور) شاعر آخر من شعراء هذه المدرسة الأدبية، صاحب فكر متجدد، فى ديوانه تشبيهات بسيطة، وعبارات بسيطة رصينة يستخدمها الشاعر للتعبير عن أفكاره وتصويرها وفقا لأسلوب مدرسة عبد الرحمن الفنية درس ديوان عبد الرحمن بدقة متناهية، وتأثر بسحر أسلوبه لا شعوريا، وقد تأثر كذلك بالشعر الدرى وفنونه الشعرية والفنية. يبدو أنه قد اشترك فى المسابقات الشعرية (المشاعرة) التى كان يقيمها كل من خوشال خان وعبد القادر خان.

قارن بين هذين البيتين لكل من الشاعرين فى الأدب الأفغانى ليتجلى لك تأثير صاحب هذه المدرسة فى شعر هذا الشاعر. يقول عبد الرحمن:

ليست للعقارب ولا للثعابين جسارة ولا جرأة
مثل جسارة ضفائرك المنعطفة وجرأة أهدابك السوداء

وقد صور عبد الغفور خان هذا الموضوع فى هذا البيت من شعره:

إن الضفائر المنعطفة، والأهداب المنحنية فتنة
فانظر تلك الفتنة حين يقوم الحبيب بثنى عمامته أيضا

---

(١) عبد الحى حبيبى: پشتانه شعراء ١: ٣١٠ - ٣١٢

٥– عبد الرحيم هوتك:[١]

الشاعر عبد الرحيم هوتك ركن من أهم أركان مدرسة عبد الرحمن الأدبية وقد نسج شعره الرصين على منواله فى أسلوب بسيط، وبعيدا عن الغموض والتعقيد، وعذوبة شعره تنظر إلى عذوبة شعر حافظ شيرازى. أصله من كندهار، وقضى حياته فى الغربة بسبب ما تعرضت له مدينة كندهار من التخريب والتدمير على يدى نادر شاه أفشار فى حوالى سنة ١١٥٠هـ. فعاش فى بخارى، وسمرقند.

شاعر عالم، درس علوم الفقه والتفسير والصرف والنحو والفلسفة والمنطق، ومن هنا نرى فى شعره المتانة العلمية والرصانة الفنية والقوة اللغوية التى مكنته من أن يكون من أبرز أعضاء هذه المدرسة. والشاعر ينتمى إلى هذه المدرسة أسلوبا وموضوعا، شكلا ومعنى. ديوانه يتألف من حوالى ستة آلاف بيت على أسلوب مدرسة عبد الرحمن الأدبية.

٦– أحمد شاه بابا الأبدالى الدرانى:[٢]

أحمد شاه بابا الدرانى من شعراء مدرسة عبد الرحمن، الذى كان صاحب التاج فى الملك والأدب، وبطل من أبطال الإسلام، وقائد من قواده الذى دوخ الهند وملوكها دفاعا عن المسلمين فيها، وبطل معركة " پانى پت " المعروفة. وحد

---

(١) عبد الحى حبيبى ١: ٣٢١

(٢) عبد الحى حبيبى: پشتانه شعراء ١: ٣٢٩ – ٣٣٧ ومحمد نواز طائر: روهى أدب ٣٨٠ – ٣٨٦

تحت رايته كلا من أفغانستان وتوران، وإيران والهند. ويقول أستاذ التاريخ الهندى البروفيسور " كندا سنك " إن أحمد شاه الأبدالى إن لم يكن أكبر وأعظم من نادر شاه أفشار فإنه ليس أقل منه فى حال من الأحوال.

شاعر صوفى، فليسوف حكيم، نسج شعره وأنشده على نغمات شعر عبد الرحمن، ناضج العقيدة، قوى الإيمان فى الدين والأدب، يتمتع بالإخلاص فى الحب، والصدق فى القول، والتفانى فى العمل الإسلامى، وفى الحب لله، ولرسوله، ولدينه، والأمة الإسلامية. وديوانه يشتمل على ثلاثة آلاف بيت من الشعر الجيد، سار فيه سيرة عبد الرحمن روحا وأسلوبا.

٧- أخوند كدا:[1]

الشاعر " أخوند كدا - العالم الفقير " (لا أعلم إن كان هذا اسمه، أو لقبه؟) من شعراء هذه المدرسة، يحب العزلة، ولا يميل إلى الشهرة. شاعر، عالم ومؤلف، له مصنف باسم " نافع المسلمين " يتناول فيه مسائل دينية. وفيه عدد من القصائد الغزلية سلك فيها مسلك عبد الرحمن فى الشعر والعشق والتصوف، خياله بسيط، ولكنه يقترب من الحقيقة والقبول الحسن. وهو يعتبر نفسه قائم مقام عبد الرحمن فى الشعر وإنشاده انظر إليه وهو يقول:

إنه قد أقامنى أنا " كدا " مقامه
عندما ارتحل عبد الرحمن عن هذا العالم

---

(١) عبد الحى حبيبى: پشتانه شعراء ١: ٣٥١ - ٣٥٥

٨- حافظ ألپورى:[١]

اسمه معظم، ويشتهر بحافظ لحفظه القرآن الكريم، وألپورى لنسبته إلى قرية " ألپورى " وهى قرية صغيرة فى أعالى وادى سوات. وكان معاصرا للإمبراطور أحمد شاه الأبدالى الدرانى الذى حكم أفغانستان من عاصمته كندهار. والحافظ الألپورى من شعراء مدرسة عبد الرحمن الأدبية، نسج شعره على منوالها واختار موضوعاتها الشعرية كالنصائح والمواعظ، وكالعشق الإلهى، والسلوك الخلقى، ولشعره بصفة عامة تأثير جيد فى قلوب السامعين والقارئين. وينقسم ديوانه إلى مباحث التوحيد والرسالة النبوية، والعشق الإلهى، ومواعظ السالكين (أهل السلوك) والعشق المجازى، والنصائح والمواعظ العامة. وهو يشبه عبد الرحمن ومدرسته الأدبية فى كناياته واستعاراته وتشبيهاته، ومحاسنه ومزاياه الشعرية الأخرى، كما يشبهه فى أكثر موضوعاته الشعرية.

٩- قاسم على أپريدى:[٢]

شاعر صاحب ديوان، أصله من قبائل (أپريدى) فى (تيراه) وولد فى (فرخ آباد) فى الهند، يتبع فى إنشاده أسلوب هذه المدرسة الأدبية، يتحدث فى أشعاره عن العشق الإلهى، والعرفان، والأخلاق، ويشتمل ديوانه على الموضوعات

---

(١) مقدمة ديوان عبد الرحمن ٣٢، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م وعبد الحى حبيبى پشتانه شعراء١: ٣٦١ - ٣٦٧

(٢) مقدمة ديوان عبد الرحمن ٢٩، أكاديمية الپشتو، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م، عبد الحى حبيبى: پشتانه شعراء ١: ٣٦٧، أكاديمية الپشتو، كابل ١٣٢٠هـ ش

الصوفية، وفيه أيضا آلام البعد عن الوطن. ويبدو من بعض أشعاره أنه درس أو قرأ آثار المتقدمين من شعراء الأفغانية. على كل فإنه متأثر بمدرسة عبد الرحمن الفنية وهو أحد أتباعها البارزين. يقول في قصيدة له ذاكرا المتقدمين مادحا نفسه أو شعره:

قد مر زمن عبد الرحمن، وجاء زمني
وكذلك دولت، وخوش حال، وميرزا

كان الشاعر " أپريدى " يجيد بالإضافة إلى لغته الأفغانية – العربية، والفارسية، والتركية، والهندية، والإنجليزية. وديوانه الذى يتألف من حوالى خمسة آلاف من الأبيات يفيد ذلك. وديوانه يشتمل على الغزليات، والقصائد، والرباعيات، والمخمسات، أنشدها على طريقة مدرسة عبد الرحمن الأدبية.

١٠– عبد العظيم سواتي:[1]

إن الشاعر عبد العظيم السواتى الرانيزى من شعراء مدرسة عبد الرحمن الأدبية، موطنه إقليم " سوات " وينتمى إلى قبيلة " الرانيزى " الشهيرة فى القبائل الأفغانية. ولد سنة ١١٦٧هـ فى " سوات " ومات فى حوالى سنة ١٢٥٣هـ. ولد فى سوات وعاش فى قرية " برتكال " بالقرب من مدينة پشاور، وذلك بعد أن قام الأعداء بقتل والده، وطرده هو نفسه من " سوات ". عالم، شاعر، صوفى،

---

(١) عبد الحى حبيبى: پشتانه شعراء ١: ٣٨٥، ومقدمة ديوان عبد الرحمن ٣٠، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م

سالك، ومرشده في السلوك والتصوف من وادى " كونر " يسلك سلوك عبد الرحمن في الشعر والعشق الإلهي، والسلوك الخلقي، والمواعظ والنصائح. وهو يقلد فى ذلك أستاذ هذه المدرسة الأدبية، انظر إليه حيث يقول:

مثل شعر عبد الرحمن بابا المهمندى
أنشدت شعر هذا الكتاب متأثرا بألم الموت

١١- نجيب (نجيب خان):[1]

نجيب شاعر آخر من شعراء الأفغانية أنشد شعره، ونسجه على منوال مدرسة عبد الرحمن الأدبية، ويلقبه بأنه رئيس الشعراء الأفغان، وأول حلقتهم الشعرية. انظر كيف يعبر عن ذلك ويصوره فى هذا البيت من شعره قائلا:

عبد الرحمن يتصدر حلقة الشعراء
وأنا آخذ بطرف من شعره
بما أن شعره لا مثيل له، فإنه يليق
بعبد الرحمن أن يقول:فتحت العالم بالشعر

---

(١) ديوان عبد الرحمن بابا ٢٩ تحقيق لفيف من علماء الأفغان، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م

١٢- عبد الغفار هوتك:[١]

من شعراء القرن الثالث عشر، ومن سكان كـلات، وهـو أيضـا مـن أتبـاع مدرسة عبد الرحمن الأدبية، ويعتبر نفسه نائبا له فـى فـن الشـعر، انظـر إليـه حيـث يقول:

الشعراء فى الأفغان أكثر من أن يعدوا
عبد الغفار نائب الشاعر عبد الرحمـن

شعراء آخرون:[٢]

وبالإضافة إلى هؤلاء الشعراء البارزين من أتباع هذه المدرسـة الأدبيـة هنـاك عدد آخر كبير من نخبة شعراء الأفغانية، قد اتبعوا فى شعرهم وفنونـه طريقـة هـذه المدرسـة، وأسـلوبها الفنـى فـى التعبـير والتصويـر، وفـى الموضوعـات والمضـامين الشعرية، والأساليب الجمالية والبلاغية. أذكر منهـم علـى سـبيل المثـال لا الحصـر: شهنواز خان، ومطيع الله پير خيـل، وميـا نعيـم المتيزى، وملا جمعـة البـاركزى، وعبد النبى البيتنى، وأحمدى صاحب زاده، وقنبر على خان أپريـدى، ونيـاز محمـد، وابن يمين، وباز محمد بنگش، وعبد الرسول ماشورى، وعجب خان، وفضل شاه، وگل محمد كاكر، وشيخ نامدار، وعبـد الوهـاب أسـكزى، وغـيرهم[٣] مـن ذوى

---

(١) ديوان عبد الرحمن بابا ٣٢، تحقيق لفيف من علماء الأفغان، كابل ١٩٧٧م

(٢) عبد الحى حبيبى: پشتانه شعراء ١: ٢١٢ – ٢١٥، أكاديمية الپشتو، كابل ١٣٢٠هـ ش

(٣) عبـد الحـى حبيبـى: پشـتانه شـعراء ١: ٣٢، ومقدمـة ديـوان عبـد الرحمـن ٣٤، كـابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م

اتجاهات أدبية وشعرية، صبوا أفكارهم فى قوالب شعرية وفقا للمنهج الشعرى الذى وضعه عبد الرحمن وبنى عليه مدرسته فى قول الشعر..

ديوانه:

ترك لنا عبد الرحمن ديوانا بلغ من اهتمام الأفغان به إلى درجة التقديس، حتى يقول الرجل الصالح عبد الغفور بن عبد الواحد: لو جازت الصلاة بغير الآيات القرآنية، لقرأت فيها منظومات عبد الرحمن بابا الشعرية[1]. إن الأفغان ينظرون إلى ديوانه نظرة تقديس وتقدير واحترام، تجرى أبيات شعره على ألسنة كل الطبقات الخاصة والعامة كالحكم والأمثال السائرة. ومن مشاهد اهتمام الأفغان بهذا الديوان أنه كان عند المستشرق الإنجليزى " ميجر راورتى " ٦٠ نسخة خطية مختلفة، كتبت فى أماكن وأزمنة مختلفة، وكان بعضها قد رتب بعد وفاته بسنوات قليلة[2].

يحتوى ديوانه على (٤١٥١) بيتا من الشعر، مع ملاحظة وجود بعض الزيادات والتكرار فى بعض القصائد والمقطوعات والمنظومات التى ظهرت فى الطبعة الأخيرة للمجمع اللغوى الأفغانى سنة ١٩٧٧م. والمقطوعات التى ظهرت فى الطبعة الثانية التى نشرتها أكاديمية البشتو سنة ١٩٨٧م، وفى الطبعة الأولى التى نشرتها دار الكتب الجامعية فى پشاور سنة ١٩٧٦م/ ١٣٩٦هـ. ويصبح عدد أبياته بعد إضافة الزيادات ٤٢٢٢ بيتا.

---

(١) مير عبد الصمد خان: شاعر إنسانيت رحمان بابا ٦، مقدمة عبد الحليم أثر

(٢) ديوان عبد الرحمن بابا ٨ – ٩، مقدمة سيد رسول رسا، طبعة پشاور

ديوانه مدون فى قسمين (دفترين) لا فرق بينهما من ناحية النضج الفنى، والخيال الأدبى، والرونق الشعرى، ومن المستحيل معرفة تاريخ تدوين الأول منهما عن الثانى، والديوان يعتمد أساسا على " الجمالية البسيطة " فى الأداء والتعبير والتصوير لكى يؤدى وظيفته فى الحدود القصوى التى يريدها عبد الرحمن، لأنه بمثابة مدرسة يتوجب أن يتعلم فيها الأفغان كل أمورهم الدينية، والأدبية والروحية. إن هذه القيم الجمالية فى ديوانه، تبدو فى أكثر من جانب من جوانب شعر عبد الرحمن الوجدانى عقلا وروحا وحسا ووجدانا، وقد منح كل هذه الجوانب الحيوية اللازمة، ووهبها القدرة الكافية على البقاء والدوام فى عالم الشعر والأدب. ومن خلال جولة شاملة عبر ديوانه المؤلف من قسميه أو دفتريه نلتقى بذلك الجمال البسيط المنبت فى كل زاوية من زوايا شعره وفكره ووجدانه. وبايجاز شديد جدا.. إن الأفغان العلماء منهم والنقاد يعلمون كيف تعامل عبد الرحمن مع الحرف الأفغانى، وكيف صاغ من الكلمة تعابيره الشعرية والأدبية، وكيف استخدم مفردات عربية وفارسية للتصوير والتجسيد! وبالجملة فإن ديوانه من حيث هو باقة جميلة من الشعر الأفغانى الوجدانى قوامها السهولة والسلاسة مع الرصانة والحلاوة!

وقد قدم عبد الرحمن فى ديوانه ألوانا جديدة، ثرية بالأفكار الإسلامية، عليها طابع الأصالة والصدق والعفوية الفطرية، وتتصل بواقع الحياة فى كثير من صورها ومناحيها، وهو فى ذلك لا يفرط أبدا فى سلامة اللغة، وشفافية العبارة، وحلاوة التعبير، وطلاوة التصوير، وجودة الكلمة، والتمسك بإسلاميته.. عقيدة ومنهجا..

ونخلص من كل ذلك إلى أن عبد الرحمن فى ديوانه كله إسلامى الفكر والوجدان، إسلامى الشعور، إسلامى السلوك، إسلامى التصوير والتعبير، يحمل اشراقة الأمل الإسلامية. ومن هنا كان لديوانه فى المحيط الأفغانى أثره البالغ فى رسوخ التعاليم الإسلامية.

وأخيرا لا يخلو ديوانه عن الزهد الذى كان يومئذ مظهر من مظاهر التدين، وعلى هذا الأساس كان الجمهور والحكام ينظرون إلى الزهد، ويكرمون مشايخ الطرق الدينية، ويعظمون من شأنهم من خلال تدينهم. وليس فى ديوانه كله شعر العبث والمجون.

ديوانه يشتهر بين الكتب الأدبية والدواوين الشعرية بالتقدير والتقديس، وبالإجلال والتمجيد والمقام الجليل، وله بالإضافة إلى ذلك منزلة رفيعة بين الكتب الدينية.. فى المساجد ودور الكتب والمكتبات الدينية، وفى المنازل والمضايف، والبعض لا يمسه إلا إذا كان متوضئا، ويعتقد البعض أن من يقرأه له أجر وثواب عند الله، وبناء على هذا الاعتقاد الراسخ يستمعون إلى مقطوعاته الشعرية التى ترتل فى حلقات الذكر، والتأمل الدينى، يتكرر ذلك ويستمر فى ليالى الشتاء، وفى أيام الصيف تحت الأشجار فى المزارع والحقول، وعلى شواطىء الأنهار، فتثير فى قلوبهم الهيجان والفوران، وفى نفوسهم الارتعاش والاهتزاز، وفى حياتهم النشوة الدينية والروحية والأدبية العجيبة، حتى الرعاة فى الأودية وفوق الجبال وسطوحها يتمتعون بما يقرأون من شعره ويطربون[1].

---

(١)مير عبد الصمد خان: شاعرإنسانيت رحمان بابا ٧٠ الطبعة الثالثة، بتصرف.

وإذا كان بعض الأفغان يقرأ ويرتل ديوان عبد الرحمن تبركا وتعبدا فإن البعض الآخر منهم يقرأه فى الأفراح والموالد ملحنا منغما بمصاحبة الآلات والفرق الموسيقية الشعبية[1].

وعبد الرحمن هو الشاعر الوحيد الذى يتميز ديوانه الشعرى بهذه المزايا الشعبية.. الدينية والاجتماعية والأدبية المتعددة الجوانب فى المنزل والمسجد والمضيفة، وهذه المراكز الثلاثة هى مراكز التثقيف الشعبى فى الديار الأفغانية منذ أقدم العصور[2]. أضف إلى ذلك أن ديوانه يدرس فى المدارس الدينية بجانب المواد الدينية[3]. ويعتقد الناس فى منازل الأفغان أن عبد الرحمن ولى من أولياء الله الصالحين، ومصلح من المصلحين الدينيين، ومن هنا أصبح ضريحه الذى لا يخلو من ديوانه مزارا للناس جميعا[4].

عبد الرحمن ومنزلته فى نظر الشعراء الأفغان:

الشاعر الملقب بلسان الغيب عبد الرحمن بن عبد الستار كان فى عصره أكبر شاعر يحظى بالقبول الحسن، لأنه أجاد قول الشعر، وطبعه بطابع الأناقة، فهز جيله، وترك لسائر الأجيال أثرا شعريا عظيما لا يزال إلى الآن محط أنظار الشعراء والمتأدبين والطلاب، فنال بذلك شهرة شاملة فى جميع طبقات الشعب بلا استثناء،

---

(١) شاعر إنسانيت رحمان بابا ٧٤، بشيء من التصرف.

(٢) محمد نواز طائر: روهى أدب ٣٠٩ الطبعة الثانية ١٩٨٦م.

(٣) شاعر إنسانيت رحمان بابا ٧٥، بشيء من التصرف.

(٤)شاعر إنسانيت ٧٦ بشيء من التصرف.

فكان جديرا بأن تلقبه بخطاب " بابا " الذى ما ناله من الشعراء والملوك إلا القليل.. فإذا قرأت بيتا من الشعر فأطربك أو أحزنك، أو أقنعك أو أرضاك، أو ترك أى أثر فى نفسك، فاعلم أنه من بيوت عبد الرحمن الشعرية، وأن ما تركه فى نفسك إنما هو روحه ومعناه، وهكذا ترك عبد الرحمن روحه ومعناه فى الشعراء الأفغان.. الذين ينظرون إليه نظرة تقدير وإجلال.. فتسابقوا فى مدحه ووصف شعره، وتباروا فى ذلك..

منذ أن امتزج الفكر الإسلامى بالفكر القومى فى ديار الأفغان، وسيطر عليه، ثم نشأ من ذلك لون خاص من ألوان الشعر الأفغانى الذى واصل نشاطه فى التطور والتقدم والارتقاء فى عصر المتقدمين أولا، ثم فى العصر الوسيط ثانيا، حتى بلغ فى التطور والرقى إلى مراحله النهائية، فلبس ثوبا جديدا دبجه به عبد الرحمن فى ديوانه بعذوبته اللفظية، وجزالته المعنوية وبيانه المعجز، وبرصانته فى التصوير والتعبير والأسلوب، الأمر الذى يترك أثره القوى على الفكر الأفغانى وفى الشعراء الذين يمثلون هذا الفكر، ولعل أول ما يلفت النظر فى ذلك كثرة الشعراء الذين أطنبوا فى مدح عبد الرحمن، وأطالوا القول فى شعره مدحا ووصفا وتأثرا..

والحقيقة التى لا يمكن إنكارها وإبعادها عن الذهن والفكر أثناء الحديث عن نظرة الشعراء إلى عبد الرحمن ومنزلته فى نظرهم، هى تمثيله آلام العشاق فى شعره، وفى الوقت نفسه يعبر بألفاظه البسيطة الرصينة، وبأسلوبه الدقيق الرقيق عن مشاعر كل فرد من أفراد الشعب الناطق بالأفغانية، وانظر إليه حيث يقول:

تطـــرب بـــــالنغم والرقـــص والضحـــك

حسان باكرام من روعة شعر عبد الرحمن[1]

وعبد الرحمن شادح التوحيد الإلهى والوحدانية، وأستاذ الخلق الطيب، والسلوك، ومرشد الضالين والمضلين، وهاديهم، وهو سالك طريق العشق الإلهى، وقائد هذا الطريق، وهو ملقن الدروس والعبر والمواعظ فى السيرة والسلوك والخلق المستقيم، والعمل الصالح، وكان عمليا فى كل ذلك قبل أن يكون ملقنا، والعشق الإلهى من مفاخره التى لا تدانيه مفخرة أخرى، وفى سبيل العشق الإلهى يتبرأ من النسبة إلى قومه من بنى خليل، وبنى داود، وقبيلة مومند (مهمند) وفى ذلك يقول:

إننى عاشق، العشـــق شـغل شـاغلى

لست خليليا، ولا داوديا، ولا مهمنديا

فلا غرابة ولا عجب إذا كان الشعراء الأفغان ينظرون إليه نظرة احترام وإجلال، نظرة تقدير وتمجيد، وهم يتبعون سلوكه، ويسيرون على طريقه، وينشدون الشعر على أسلوبه فى التصوير والتعبير، وفى التجسيد والتخييل، كما سيأتى ذلك عن قريب..

وعبد الرحمن ينبوع العزيمة والإصرار، ومنبع الصدق والاستقامة، ومصدر الخجل والانفعال، والعفة والحياء، والخلق والسلوك، والإيثار والفداء، والتميز والبذل، والمروءة والإنصاف، والتوكل على الله، والعصبية والدفاع، والرجاء

---

(١) روهى أدب ٣٠٧ – ٣٠٨، بتصرف

والخوف، والهمة والإقدام، والتدبر والتفكر، والتدبير وحسن النظر، والطاعة والانقياد، والوجل والخوف، والاستغفار والمغفرة. وقد صور الشاعر هذه المعانى فى شعره، ومن هنا مدحه الشعراء بهذه المعانى والموضوعات، وهى بالتالى موضوعات ومعان يمكن للأفغان أن يتعملوها فى مراكز ثقافتهم التقليدية.. المنزل والمسجد والمضيفة، ومن هنا نرى تأثير شعره فى جميع الطوائف الشعبية.. من المثقفين والشعراء وعامة الناس، وخاصة إذا أضفنا إلى ذلك ما لشعره من مزايا إنسانية وعلمية واجتماعية عامة، حتى قال النقاد والعلماء: إنه لا يشابهه فى هذه المزايا ولا يجاريه شعر شاعر آخر من شعراء الأفغان، وإن كان ذلك شعر الإمبراطور أحمد شاه بابا الدرانى بطل معركة " يانى يت " والزعيم الشاعر خوش حال خان[1]! ومن هنا أيضا نرى عددا كبيرا من الشعراء الأفغان يفضلونه على غيره من الشعراء والكتاب والأدباء، وينظرون إليه نظرة إجلال وإكبار وتجليل، كما سيأتى قريبا..

كل الأفغان يعتقدون اعتقادا جازما على أن عبد الرحمن ولى من أولياء الله الصالحين، وشعره شعر عارف ربانى، وهذا سبب آخر من أسباب انتشار شعره بين الناس، وقبوله قبولا حسنا بين مختلف الطبقات فى الديار الأفغانية[2].. ويقول البروفيسور محمد نواز طائر: من الممكن أن يختلف النقاد فى: من هو أكبر شاعر فى منازل الأفغان، ولكنه لا يختلف اثنان فى أن عبد الرحمن هو أقرب الشعراء

---

(١) روهى أدب ٣٠٨ – ٣٠٩، بتصرف.

(٢) روهى أدب ٣٠٩ – ٣١٠، بتصرف.

وأحبهم إلى القلوب فى كل الديار الأفغانيـة، ولـه منزلـة عاليـه، ودرجـة رفيعـة لم يبلغها غيره من شعراء الأفغانية حتى الآن[1]..

كل ذلك لأن عبد الرحمن الشاعر المحبوب قـد انطلـق فـى الأجـواء الشـعرية بعد أن ملأه الشوق إلى الخلود، وكسر حوله القيود والضرورات، وتحول إلى وعى ويقظة، وإلى حس وشـعور وخيـال، فـأصبح يـرى ويسـمع ويحـس مـا لا يـراه أو يسمعه أو يحسه بقية الناس من حولـه، وهـو يعـرف مـن أسـرار الحيـاة ورموزهـا، ويسمع بدقة ما ترتله أصباحها، وأمسياتها، وهمسات لياليها، ونفحات أسـحارها ما لا يدرى به الآخرون من الشعراء وغيرهم.. إنه يحس الكون إبداعا جميلا ساحرا لرب حكيم لطيف، وقبل أن يصل إلى نشـوة الحيـاة، يمضـى الليـل سـاهرا، ويهيـم عشقا بالإنشاد والإنشاء، ويعايش الكلمة الحية، فتبكيه أنشودة وتضحكـه أخـرى، وتقذفه مقطوعة إلى البحر، وتحمله أخـرى إلى الشـاطئ، وتقلـه عاصفـة عشـق إلى جحيم لاهب، وتحمله فكرة لتقوده إلى نعيم سرمدى لا ينتهى ولا يختفى، ثم تتفتح عيناه بين أزاهير الحياة المبدعة الشاعرة، فيحس بعبير ساحر لهـذا الكـون، ويتـذوق سحر الوجود فى نسمات الربيـع وصحـوة السـحر والعشـق النـاعس. أليـس لهـذا الشاعر حق فى أن يكون محبوبا بين بنى الأفغان!؟. وفيما يلى بعـض مـن قـال فيـه ذلك:

---

(١) المرجع السابق بتصرف.

١ـ خوش حال خان:

يقول أمير الشعر الأفغاني، وشيخه وأبوه الزعيم خوش حال خان متعاليا بشعره ونفسه على عبد الرحمن وشعره وقومه، ويدعو السربنية قوم عبد الرحمن لتقدم مائة منهم فداء لغزل واحد أنشده بالأفغانية، ولا يتعالى أحد على أحد إلا إذا كان يراه على مقدار منه في المنزلة وعلو القدر، أو يكاد أن يزيد ويعلو عليه قدرا ومنزلة وشهرة وعذوبة. يقول خوش حال خان في ذلك ناشدا شعره بالأفغانية مفتخرا بشعره، ومحاولا الحط من قدر شعر منافسه[١]:

فليصر مائة من السربنية فداء غزل واحد
حيث نطق اليوم خوش حال بالأفغانية غزلا

٢ـ أشرف خان:

وصاحب الكلام العذب، والأسلوب الأعذب أشرف خان بن خوش حال خان والمتوفى سنة ١١٠٦هـ يشيد في شعره بما لعبد الرحمن من مقام ومنزلة عالية بين شعراء الأفغانية، حيث يقول[٢]:

إن صاحب اللسان العذب الذى ينثر من لسانه سكرا
هو ذلك البلبل المغرد الذى يستقر في پشاور

---

(١) ديوان عبد الرحمن ٢٥، المقدمة، أكاديمية البشتو، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م.
(٢) المرجع السابق.

شعر عبد الرحمن أرفع من أن يلقب ويوصف
وقبولى لشعره دليل على أنه أعلى شأنا وأكثر اعتبارا

٣- مصرى خان:

مصرى خان ككيانى من شعراء الأفغانية الذين وصفوا شعر عبد الرحمن ومدحوه مدحا عطرا، وهو الذى يقول فى وصف شعره العذب الرصين الذى يسيل عسلا وسكرا، وينثر الدرر والجوهر، انظر إليه حيث يقول واضعا شعره وشعر حميد فى منزلة أكثر عذوبة وحلاوة من منزلة الشعر الفارسى[١]:

إننى أرى شعر الفارسية أحلى مثل السكر
وجعل حميد ورحمان شعرالأفغانية أكثر منه عذوبة

٤- معز الله موهند:

والشاعر معز الله موهند (مهمند) من شعراء القرن الذى عاش فيه عبد الرحمن يثنى على قوة عبد الرحمن الأدبية ومتانته وقدرته الفائقة فى قول الشعر وتصوير الأفكار، ويفضله فى كل ذلك على غيره، ويقول[٢]:

فى شعراء كل الديار الأفغانية
قد وقع اختيارى على عبد الرحمن

---

(١) ديوان عبد الرحمن ١٩، أكاديمية البشتو، پشاور، وديوان عبد الرحمن ٢٨، المقدمة، كابل.
(٢) مقدمة ديوان عبد الرحمن ٢٨، أكاديمية البشتو، كابل، وديوان معز الله ١٦، أكاديمية البشتو، پشاور ١٩٥٨م.

٥ـ كاظم خان شيدا:

هذا الشاعر كاظم خان شيدا بن أفضل خان أحد أحفاد الزعيم الشاعر خوش حال خان الذى جاء إلى الحياة بعد وفاة عبد الرحمن قد قلد فى كثير من شعره، ونسجه على منوال عبد الرحمن، وأسلوبه فى فن الشعر، اسمعه حيث يقول[١]:

إن قلب شيدا على هذه الشطرة من شعر رحمان

" أنت ملاك، أم غزال، أم ساحر؟ "

ويقول فى بيت آخر من شعره، ويذكر كلا من عبد الرحمن، وحميد ماشو خيل باسم المهمندين، ويتمنى لو كانا على قيد الحياة لأثنيا على شعره، انظر كيف يعبر عن ذلك[٢]:

إن كان المهمنديان على قيد الحياة الآن يا شيدا

لكانا يثنيان على قولك الشعر فى كل وقت

٦ـ بيدل (مسلوب القلب):

ويلقبه هذا الشاعر العظيم من شعراء الأفغانية بلقب سلطان الشعراء، وذلك أثناء حديثه عن بعض الشعراء الأفغان شعرا، يقول الشاعر بيدل[٣]:

---

(١) مقدمة ديوان عبد الرحمن ٢٩، أكاديمية البشتو، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م، وديوان كاظم خان شيدا ١٤٢، پشاور ١٩٦٥م.

(٢) ديوان كاظم خان شيدا ٥٢، أكاديمية البشتو، كابل ١٣٣١هـ ش

(٣) ديوان بيدل ٢١٢، پشاور ١٩٥٧م، ومقدمة ديوان عبد الرحمن ٢٩ – ٣٠، أكاديمية البشتو، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م

الـــذى يشـــتهر ديـــوان شـــعره الســـاحر بالأفغانيـــة بـين زمـرة الشـعراء الأفغـان هـــو الشـاعر عبـد الرحمـن الذى قوله فى الشعر يساوى حاله.. لا زيـادة ولا نقصـان لذلك فمن المسلم قبولـه الحسـن عنـد كـل عـالم وجـاهل إنـــه ملقـــب بلقـــب ســـلطان الشـــعراء بجـــدارة بحجـة أن بيتـه ونصـف بيتـه برهـان لـه فـى كـل مكـان

٧- شمس الدين كاكړ:

إن شمس الدين كاكړ من أقـوى وأشـهر شـعراء مدرسـة پـير محمـد كـاكړ، بالإضافة إلى كونه شاعرا وأديبا من أبرز الشخصيات الأدبية والشـعرية فـى الأدب الأفغانى بصفة عامة، يلقب عبد الرحمن بلقب " لسان الغيب " ويقول[1]:

إن أمسـك منصـف مـيزان الشـعر فـى يـده
ووزن بيـان الشـعر وسـحره بـالعروض
لـن يسـتطيع أن يصـل بشـعره إلى رحمـان
مهما كان هوس الأفغـان فـى إنشـاد الشـعر
وفـى الحقيقـة إنـه شـاعر لسـان الغيـب
كانت للسانه اللياقـة والجـدارة لقـول الشـعر

---

(١) ديـوان شمـس الديـن كـاكړ ٤١، أكاديميـة الپشـتو، كـابل ١٣٣٣هـ ش، ومقدمـة ديـوان عبد الرحمن ٣١، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م

٨- ميرزا حنان البار كزى:

وينظر حنان البار كزى إلى شعر عبد الرحمن على أنـه جواهـر نفيسـة، ودرر لامعة، بعضه مثال بعضه الآخر فى الجودة والروعة، وفى العذوبـة والحـلاوة، وفـى الحسن والجمال، يدل على ذلك هذا البيت من شعره[١]:

وشاعر آخر من پشاور وهو السـربنى
شعره بالأفغانية يتفاضـل بعضـه بعضـا

٩- عبد الله پوپلزى:

من شعراء كندهار (قندهار) ينظر إلى شعر عبـد الرحمـن علـى أنـه معجـزة، اسمعه حيث يقول[٢]:

تفوح رائحة المعجزة من شعر عبد الرحمن
يرفع المريد فيعادله بسرعة مع مقام المرشد

١٠- مير أحمد شاه:

هذا الشاعر الشهير بالقاضى مير أحمد شاه رضوانى يصف شعر عبد الرحمـن ويقول إنه يتموج بالوجد، والحزن، والحب، والجذب، والمد، وفى ذلك يقول[٣]:

---

(١) ديوان حنان البار كزى ٦٣، كابل ١٣٣٦هـ ش، ومقدمة ديوان عبـد الرحمـن ٣١، كـابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م

(٢) مقدمة ديوان عبد الرحمن ٣١، كابل ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م

(٣) المرجع السابق.

فى عهد " شاه عـالم " وفـى السـربنية
ظهر لنا فـى هـذا العـالم عبـد الرحمـن
أنشـأ كالموسـيقار نغمـات صوتيـة
أشعل بهـا النـار فـى العـالم كلـه
تعتقـد وتقـول كأنـه حـافظ شـيرازى
وقـد ظهـر فـى الشـعب الأفغـانى
جعـل الصوفـى والداعيـة والقـاضى
يرقصـون مـن غـيرى فـى الميـدان

١١- سيد عبد الرءوف (أيم.أى):

الأسـتاذ سـيد عبـد الـرءوف خـان (أيـم.أى) أديـب مـن أدبـاء الأفغانية(البشتونية) ومن فضلائها المشهورين بالعلم والفضـل والأدب، وقـد أثـرى الأدب الأفغانى (البشتونى) بعلمه الغزيـر، وأدبـه الجزيـل، وفنـه الرفيـع، وبأسـلوبه الرصين فى التأليف والإنشاء، جعل الله علمه وأدبه ذخرا للغـة الأفغانيـة وآدابهـا. وهو من عشاق الأدب عامة والشعر خاصة، وقد عشق الشعر وبخاصـة شـعر كـل من إمام العارفين عبد الرحمن بن عبد الستار الشهير برحمـان بابـا، وشـاعر الإسـلام العلامة محمد إقبال، مع الفارق بين لغة شعر كـل مـن الشـاعرين العظيمـين حيـث أنشد الأول بالأفغانية (البشتونية) والثـانى بالفارسـية والأرديـة، ومـع فـارق البعـد الشاسع بين العصرين اللذين عاش فيهما كل من الشـاعرين الزاهديـن رحمـان بابـا ومحمد إقبال. وحب سيد عبد الـرءوف خـان للشـاعرين الشـهيرين يبـدو واضحـا وجليـا ممـا كتبـه عنهمـا مـن الموازنـات الأدبيـة بـين شـعرى الشـاعرين الصوفيـين

المتباعدين فى البعد الزمنى واللغوى والمتقاربين فى المشرب والمسلك.. كالوجد الصوفى، والذوق الأدبى، والشوق النورانى. وهذا المشرب الصوفى هو الذى قد قرب بين الشاعرين فى قلب هذا الفاضل عبد الرءوف.

فقد عقد الأستاذ سيد عبد الرءوف خان (أيم.أى).مقارنة أدبية فريدة ورائعة بين هذين الشاعرين المتباعدين فى البعد اللغوى والزمنى، والمتقاربين فى الأبعاد الفكرية والوجدية والذوقية والشوقية الصوفية، أحدهما شاعر الأفغان عبد الرحمن بابا، والآخر شاعر الإسلام محمد إقبال تحت عنوان " **شعر رحمان** " نشرتها مجلة " الحق " فى مدينة " أكوره ختك " ص٤٥، المجلد ١٣، العدد ٣ – ٤، شهرديسمبر١٩٧٧م يبدو منها أن العلامة إقبال متأثر فى بعض أفكاره الصوفية بفكر عبد الرحمن فى شعره الصوفى إن لم نقل بالتوارد الفكرى فى ذلك.

يقول سيد عبد الرءوف خان فى التمهيد لمقارنته الأدبية والفكرية بين هذين الشاعرين الزاهين العظيمين: إن مراتب العشق ومقاماته – كما يقول أهل الزهد والتصوف – ثلاثة: مقام الوصل، ومقام الفصل، ومقام بين الوصل والفصل. والشاعر الوجدانى الصوفى الزاهد عبد الرحمن قد تناول فى شعره موضوع الوصل والفصل بكثير من الموضوعية وبمزيد من الاهتمام. وقد قارن عبد الرءوف بين ما يقوله عبد الرحمن وبين ما يقوله محمد إقبال فى هذا الموضوع الصوفى الشهير على النحو الآتى:

يقول عبد الرحمن:

ليس فى مقدورى النظر إلى وجهه من الأدب
فقد ابتلانى الله بالفراق والوصل فى الملة

ويقول محمد إقبال:

نحن معدومون فيه، وهو منفصل مستقل عن الكل
ماء رواء في المرآة، وليس في مرآة الماء والرواء

ويقول عبد الرحمن:

لقد وجدت الوصال وعثرت عليه في الفصل والهجر
واتصلت بيوسف وليقت به في غياهب السجن
فصرنا من الوصل كالمتن من المعنى، والمعنى من المتن
هكذا حبيبي، وهو داخل فؤادي وروحي ونفسي

ويقول محمد إقبال:

في المكان الذي ليس فيه غير تجلياتنا النورانية
لأنه لايوجد النور والصدى من غير الجلوة
ليس هو من غيرنا، ولسنا من غيره، ما هذه الحالة؟
فصلنا وفراقنا وصال في الفراق والوصل

ومهما يكن من أمر التأثر والتأثير والتوارد الفكرى فإن كلا من الشاعرين الرمزيين يتحدثان عن موضوع الوصل والفصل أو عن الاتحاد مع المحبوب والانفصال عنه، ويصوران تلك الأفكار التى قالها وصورها غيرهما من السادة الصوفية، ولكنهما يتحدثان عنها بصورة شاعرية رائعة تحرك القلوب والمشاعر وتثير الأحاسيس، وتجعل القارىء يرى ويسمع هذه المعانى والأفكار من أبعاد فنية ومعنوية أخرى، وكأنه يراها ويسمعها من الشاعرين الصوفيين بهذه الصورة وبهذا الشكل الرائع لأول مرة.

شعره ودواعيه:

ينطلق شعر عبد الرحمن بن عبد الستار من مشاعره فى داخل أعماق وجدانه، وهو وثيق الصلة بالله خالقه، وهو ثورته الهادئة على الظلم والطغيان، وهو ناصره للمظلومين.. وهو ثروته الخالدة، وتراثه وتراث الأفغان الخالد التليد.

ودواعى الشعر عنده كثيرة ومتنوعة، وكلها تنبع من الواجبات الإسلامية الملقاة على عاتقه، وعاتق الشاعر المسلم.. فقد وقف شعره لخدمة الإسلام، وقضاياه، ومجتمعه، دون الالتفات لحياته الخاصة، وقد وصل إلى قمة الإبداع فى كل هذه الجوانب..

لا تكن حزينا مغموما لأجل منافع الدنيا وأعراضها الفانية
فكر بحزن فى أمور الدين، وشئون الإيمان ولا تكن ملحدا بلا دين
كل مشكلة فى الدنيا لها حلها وطريقة فتحها يا قليل الحظ
فلا تيأس من رحمة الله الواسعة، ولا تكن عابس الجبين[1]

وهو يؤكد أن أهداف شعره تمجيد الإسلام، وتمجيد رواده، وأبطاله، لعل الأمة الأفغانية تأخذ من ذلك القدوة، فتعيد تلك الأيام الخوالى وتنجب مثل هؤلاء الأبطال والرواد الغر الميامين. من أجل ذلك نراه وقد رسم لنا صورة المسلم البطل، والمسلم الرائد، والمسلم المناضل، وقد استخدم فى ذلك تصوره الشامل، وسعة فكره، ووضوح رؤيته، وطهارة سلوكه، وصدق إيمانه الإسلامى..

---

(١) مير عبد الصمد خان: شاعر إنسانيت رحمان بابا ٢١٨، ود رحمان بابا ديوان ١٥٩، تحقيق لفيف من علماء الأفغان، پشتو تولنه، كابل.

سيتمتع بالأمن من خطر الطوفان ذلك القلب الشجاع
الذى يحمل كالسفينة مشقة أحمال الناس ومعاناتهم[1]

شعره رصين سلس، سهل واضح المعالم والمعانى، له شفافية روحانية عذبة، يشتمل فى الغالب على الموضوعات الدينية والخلقية، أو التى لها صلة وثيقة بالدين والعقيدة والوجدان، ولهذا كان واحدا من الحداة لركب الإيمان السائرين على درب الحق. إنه يعبر فى شعره الرصين عن مشاعر الأفغان الفطرية والقومية، ويصورها بأسلوب بسيط، وفى ألفاظ دقيقة عذبة، وعبارات تقطر عذوبة وحلاوة، الكل يفهمه بقدر ما فيه من القدرة على الفهم، وكلما تعمق فيه كلما وجد فيه معنى أعمق، ومفهوما أوسع.

فى شعره إخلاص مواج، وإجادة متناهية، وطيبة متدفقة، ورصانة ملموسة، وعذوبة طيبة، وبساطة جميلة، ومتانة محكمة، وحرقة ملتهبة، وفهم عميق للمفاهيم الإسلامية، لم يكن عبد الرحمن بابا من الناطقين بلغة أهل الحجاز، ولكن فهمه الجيد لكلمة التوحيد كان عميقا إلى أبعد الحدود، وفى عمقه هذا توسع غير محدود، كل ذلك ساعده على معرفة الأسرار فى كلمة التوحيد والمفاهيم الإسلامية الأخرى.

وقارئ شعر أب الأفغان عبد الرحمن يحس من اللحظة الأولى بلهفته الشديدة لكشف المجهول، وشوقه المزيد لما يحمله الغيب، لأن المسلم مطمئن لما يأتى من عند الله، لذلك نراه يعبر عن الأمل المحجوب بستار الغد والانتظار الشائق المحرق

---

(١) د رحمان بابا ديوان ٢٢٩، تحقيق لفيف من علماء الأفغان، طبعة پشتو تولنه، كابل.

أحيانا، بل والمرارة والحرمان من الواقع أحيانا، كما يشعر قارىء شعر عبد الرحمن بأن الإيمان فى شعره نور غامر يفيض بلا نهاية، وفسحة ظليلة تمتد بلا حدود، ورؤية واضحة متجددة مع الزمن، وطمأنينة مؤنسة بلا ملل، إنه يصل بين الإنسان المؤمن والحياة بوشائج الفطرة التى لا تضعف، بعد أن يصل بين الإنسان المخلوق وخالقه الكريم. والإنسان الذى يخاطبه عبد الرحمن بابا هو الذى صاغه الإسلام فكرا ووجدانا، وسلوكا فى حياته فى الدنيا والآخرة، وهو الإنسان الذىبقيت فطرته سليمة، واستعصت على الجاهليات، فلم تستطع إفسادها. وهو كل إنسان حمل الإسلام منهج حياة، والتزم به عقيدة وسلوكا.

وأخيرا فإن أشعار عبد الرحمن بن عبد الستار مضرب الأمثال لما حوته من الفصاحة وحسن البيان، ولقيمتها الأدبية والاجتماعية، ولأنها حلية تزين المجالس والرسائل، وتناسب كل المناسبات، وتريك المخيل فى صورة المحقق، والمتوهم فى معرض المتقين، والغائب كأنه مشاهد، فهى كالحجة البالغة، والحكمة الواضحة.. ومن هنا لم تنل أشعار شاعر أفغانى ما نالته أشعار عبد الرحمن من الشهرة وبعد الأثر، فقد مضى على وفاته أكثر من ٢٨٦ عاما ولا تزال أشعاره حية فى النفوس والأذهان، تحيى فيها الحماس، وتذكى الأنفة، وتمنح الحكمة.

شاعريته:

لم ينل شعر شاعر أفغانى من الشهرة والذيوع ما ناله شعر عبد الرحمن وشاعريته الوجدانية، فهو بعيد الأثر فى مجالس الأدب، شائع بتوسع بلا حدود بين جميع الطبقات، ولشاعريته الوجدانية مقام فريد بين شعراء الأفغانية وشاعريتهم،

لنضج القوة الشعرية فى شاعريته الفطرية، ولعدم تقييد شاعريته الموهوبة بقيود إلا بقيد العقيدة الإسلامية.

وعبد الرحمن فى مجال الشعر وفنون الشاعرية صاحب مذهب فى الشعر تم وضع دعائمه وأسس بنيانه على يديه منذ القرن السابع عشر الميلادى، وأصبح له خصائصه الفنية التى تميزه عن غيره من المذاهب أو المدارس الأدبية والشعرية، وقد عرف هذا المذهب بالمدرسة الشعرية الرحمانية نسبة إلى عبد الرحمن، وقد اتخذها كثير من تلاميذه وأتباعه مذهبا لهم، ساروا على دربها، ونسجوا على منوالها، من أمثال عبد الرحيم هوتكى، وأحمد شاه الدرانى، وعبد العظيم السواتى، والملا جمعه البار كزى وغيرهم. وهكذا كان لشاعريته أثر كبير فى من أتى بعده من الشعراء.

وقد كتب لهذا المذهب الشعرى، أو المدرسة الشعرية الذيوع والانتشار والبقاء، وتأثر بعبقرية صاحبه، وبشاعريته الموهوبة كثير من شعراء الأفغان كما قلت، وذلك لما وهبه الله من طبع وموهبة وذكاء خارق، وملكة مبتكرة فى الشاعرية التى تنبع من أعماق وجدانه، والتى بلغت ذروة الكمال.

شاعرية عبد الرحمن الوجدانية تصور صدى فؤاده، وتحمله إلى الآفاق البعيدة، والقارىء لشعره يشعر بأن لسان شاعريته وإن كان فى ظاهر الأمر يخاطب الخلق، إلا أنه فى حقيقة الأمر يخاطب رب الخلق من أعماق قلبه ووجدانه.. ومعنى ذلك أنه يخاطب الخلق ويناجى رب الخلق فى آن واحد. وهذه الكيفية المزدوجة النابعة من شاعريته المطبوعة، ومن عبقريته الموهوبة قلما يعثر عليها عند غيره من شعراء الأفغانية. ويكفى شاعرية عبد الرحمن فخرا أنها تركت لنا ديوان شعر كان ولا يزال مرجعا يهتدى به الشعراء الأفغان فى كثير من فنون

الشعر، ولا يزال كثير من الباحثين يجدون فيه معينا لا ينضب لكثير من المعانى والبحوث والدراسات.

وتمتاز شاعريته برقة فى الطبع والتعبير، وبدقة فى العبارة والتصوير، إلى جانب ما تتمتع به من النعومة والسلامة والعذوبة، وتبلغ الدرجة العليا من الأناقة والرشاقة، وهو فى شاعريته فى طليعة الشعراء ديباجة وملاءمة ورونقا، وسهولة وجزالة وحلاوة، وفى شاعريته الطبيعية الفطرية رصانة ونصاعة ولطافة، إلى جانب اشتمالها على الطلاوة والملاحة والحسن..

يا إلهى الكريم، احتراما وتكريما لنبيك الحبيب
اجعل هذا الإنشاء البسيط لعبد الرحمن مصبوغا بالجمال والروعة[1]

فى شاعريته الفطرية ارتباط وثيق بين الشكل والموضوع، بين الأسلوب والعمل، بين الظاهر والباطن، بين المظهر والجوهر، وبين اللفظ والمعنى، إن مدرج الالتزام الإسلامى فى شاعريته يبدأ بالإسلام،فالإيمان، فالتقوى،وينتهى بالإحسان..

إننى بفطرتى وبطبعى الحسن فى غنى عن أذى الحاقدين
وإننى بحلمى وصبرى كالماء أكافىء النار جزاء لها
وإننى أبدو وأظهر لجميع الناس فى شكلى وصورتى الحقيقية
وإننى كالمرآة بلا مواراة، وبلا رياء وتظاهر[2]

---

(١) د رحمان بابا ديوان ٢٢٢، طبعة پشتو تولنه، كابل ١٩٧٧م

(٢) المرجع السابق ١٠١، وپشتانه شعراء ١: ١٩٧

إن الجمال فى شاعرية عبد الرحمن ملمح أصيل يميز بين الجمالية الإسلامية الصارمة وبين سائر المذاهب والمواقف الجمالية التى انبعثت عنها أنماط شتى من الآداب والفنون. إن الجمالية الرحمانية الصادقة ترفض هذه الخديعة، والمواراة، وتصف بالكذب أولئك الذين يسعون إلى تزييف الحياة بالنفاق والخداع، إن الإنسان المسلم يتميز بكونه يعيش الحياة بنوعيها الباطنى والخارجى بتركيز شديد من الاستقامة الصادقة، وحسن الخلق والسلوك. فليحترق ذلك القلم الذى لا يكتب إلا صدقا، وليمت ذلك القلب الذى لا يتأمل إلا بصدق:

إننى عبد الرحمن أطلب الحماية من مثل أولئك الناس

الذين يتظاهرون بخلاف مقاماتهم التى لا يتمتعون بها[1]

إن الشعر فى شاعرية عبد الرحمن الوجدانية نوعان: وجدانى وموضوعى، فالشعر الوجدانى ينبع من أعماق وجدانه، ويدور حول نفسه، بعد أن يتأثر بأمر ما، ثم يظهر ذلك التأثر بالكلام المنظوم. شأنه فى ذلك شأن غيره من الشعراء. ومن هذا النوع فى شعره مدحه وثناؤه لربه، ومدحه لرسوله (صلى الله عليه وسلم)، ووصفه لما تقع عليه عينه، ودعوته إلى الإصلاح.

أما شعره الموضوعى فيدور على شئ خارج عن نفسه ووجدانه، على صفات يتخيلها أو يراها فيما حوله من ظواهر الطبيعة، أو النظر فى حياة الإنسان المسلم وما إلى ذلك من المواضيع الخلقية والسلوكية والاجتماعية والأدبية التى تمثل

---

(١) د رحمان بابا ديوان ٤٠، طبعة پشتو تولنه، كابل، و٧٥ طبعة پشتو أكيدمى، جامعة پشاور.

للجمهور ما يشعر به فى الحياة، أو تحملهم على أجنحة الخيال إلى ما وراء المحسوسات، فتثير فيهم حب الجمال وتدفعهم فى سبيل الوصول إلى الكمال. والنوع الأول وهو الشعر الوجدانى يستوعب أكثر صفحات ديوانه بقسميه بينما نرى النوع الثانى وهو الشعر الموضوعى فإنه أقل من النوع الأول بكثير، وإن كان النوعان من شعره يستويان على العرش فى الجودة والروعة والكمال.

موضوعات بابا:

إننا إذا أردنا أن نقسم شعر عبد الرحمن بابا على أساس مضمونه لوجدنا أنه ينقسم إلى قسمين أساسيين، الأول منهما شعر وجدانى فلسفى صوفى يتناول معانى الصوفية والفلاسفة الاسلاميين كالحديث عن المحبة الإلهية، والوجد، والنفس الإنسانية، وأصلها الإلهى، وحنينها إلى ذلك الأصل الذى انفصلت عنه، ولمحات عن وحدة الوجود بمعناها الصوفى لابمعناها الفلسفي، فهو فى هذه الناحية يختلف اختلافا كبيرا وأساسيا عن محى الدين بن عربى، ويتفق مع مولانا جلال الدين البلخى(الرومى) اتفاقا كاملا. والشاعر عبد الرحمن فى هذا اللون من الشعر الوجدانى يحلّق دائما فى آفاق العالم الروحى، لايكاد يمس الحياة المادية إلا ليوضح تفاهتها البالغة اذا تمت موازنتها أو مقارنتها بالحياة الروحية، وما تنطوى عليه من سعادة وبهجة قوامها الكمال والجمال والخلود. كان هذا هو القسم الأول من شعر هذا الشاعر العظيم من شعراء الأفغانية(البشتونية).

والقسم الثانى من شعر هذا الشاعر الصوفى شعر إنسانى خلقى، يتناول فى قسم كبير منه الإنسان وأهميته فى هذا الكون والوجود، وهو فى هذا اللون من

الشعر الإنسانى الخلقى معلم أكثر منه فيلسوفا، يترك الرمز فى كثير من الأحوال والموضوعات ويستخدم القصص والأمثال لتوضيح الأفكار والآراء التى يدعو إليها.وفكرته أو فلسفته الخلقية هنا قائمة على دعوة الإنسان المسلم لتحقيق الكمال فى هذه الحياة الفانية. وتختلط فى ديوانه شعر الفلسفة والحكمة والشعر الخلقى والتعليمى، وبطبيعة الحال يختلف أسلوب الشاعر فى شعره الوجدانى عنه فى شعره التعليمى، ففى شعره الوجدانى يبدو جياش العاطفة، شديد الإحساس، مرهف الشعور يعبر عن المعانى الروحية بقوة وحرارة جديرتين بهذا النوع من الشعر الوجدانى، وهو يعرض علينا فلسفة الصوفية والزهاد بطريقة تبدو جديدة، تختلف كل الاختلاف عن كل ما عُرِفَ من شعر صوفى إسلامى، سواء ما كان منه بالأفغانية، أو بالعربية أو الفارسية أو التركية. فقد تناول فى كثير من غزلياته ومقطوعاته الشعرية موضوعات التصوف تناولا مباشرا، وعالجها بأصالة فنية جعلت شعره يختلف اختلافا كبيرا عما كتبه غيره من شعراء الصوفية فى البلاد الأفغانية. وبينما نجد شاعرين عظيمين كابن الفارض والحافظ الشيرازى يغرقان معانيهما الصوفية فى سيل من المحسنات اللفظية والعبارات المنمقة نجد عبد الرحمن متحررا فى أسلوبه وطريقة تعبيره من تلك المحسنات، منطلقا بعباراته إلى آفاق لاتحد، لاتكاد عباراته تحمل من شحنات معانيه إلا القدر الضرورى الذى يثير الخيال ويستحثه إلى ملاحقة الشاعر المحلق فى الآفاق العالية فى عالمه الروحى.

ولكن طريقة الشاعر فى معالجة موضوعاته الصوفية والفسلفية والتعليمية فى شعره بنوعيه الوجدانى الفلسفى والإنسانى الخلقى قد خلت عن الترتيب والتنسيق الدقيق، فهو ينتقل من موضوع إلى موضوع، ومن غرض إلى غرض، ومن مقصد إلى آخر دون منهج محدد يتبعه ويسير عليه فى هذا الانتقال السريع. ومع ذلك فإن

كل جزء من أجزاء ديوانه، بل كل بيت من أبيات مقطوعاته الشعرية يمثل وحدة فنية متكاملة، وأن ما يبدو فيه من انطلاق على غير نظام موضوعي محدد ليس هو الواقع، وإنما هناك ارتباط فنى دقيق فى التنقل من موضوع إلى آخر. أو من هدف إلى هدف ومهما يكن الأمر فإن هذا التنقل بين الموضوعات والأهداف لايعنى أن الشاعر لايعالج الموضوع الواحد بصورة فنية مترابطة. فنحن فى إمكاننا أن نستخرج من الديوان موضوعات كثيرة تناولها الشاعر تناولا فنيا بارعا، واستطاع أن يقدمها لنا فى هيكل فنى متكامل العناصر، مترابط الأجزاء، تجمعه وحدة فنية أكيدة ذات جذور أدبية أصيلة.

الفن عند عبد الرحمن بابا:

ليس فى مقدورى الإحاطة الكاملة بفن هذا الشاعر العظيم فى هذه المقدمة الموجزة. ولكن حسبى أن أذكر بعضا من الحقائق الفنية التى تعين القارىء على تذوق هذا الفن، والإلمام ببعض من خصائصه الفنية. لقد امتاز شعر عبد الرحمن بميزات فنية عديدة أهمها ما يأتى:

أولا - المثالية:

المثالية فى كل المعانى والمفاهيم، وفى كل الأساليب وطرق التعبير، هى اللهجة الغالبة على هذا الشاعر وديوانه، فهو مثالى فى تصويره وتعبيره، مثالى فى أسلوبه وطريقة أدائه، والمثالية هى المقياس والحكم الفيصل فى كل المواقف والمجالات، وفى كل المظاهر والمجالى، فالصوفية وأهل الزهد الإسلامى هم العظماء والملوك، وجوهرهم النقى الصافى هو مقياس ذلك، والميزان المفضل عنده،

وتجردهم من علائق المادة، وطغيان الأهواء النفسية هو الذى قد أهلهم لذلك. ولابد فى هذا وذاك من الإخلاص والصدق والتفانى، ولا اعتبار للمظهر ونضارة المنظر والمجلى، وكم فى الديوان صرخة فى وجه الظالمين، قد تجىء فى شكل الإنذار الواضح، وقد تجىء فى صورة السخرية اللاذعة التى لاتقل تأثيرا وإثارة عن تأثير أسلوب القوة والإنذار الصريح، وكم فيه من فضيلة أبدع فى تصويرها أيما إبداع، وكم فيه من كشف عن الرذائل الكامنة فى أعماق النفس البشرية، بأسلوب الخبير المثالى العليم بالنفس الإنسانية، الماهر المطلع على كوامن أسرارها العميقة، ومستتر خلجاتها وخواطرها الخفية، إن مثاليته فى كل ذلك تشبه مثالية مولوى جلال الدين البلخى(الرومى) فى مثنويته الشهيرة، ومثالية السنائى الغزنوى الذى نظم المثنويات الصوفية لأول مرة فى التاريخ الأدبى، وأشهر مثنوياته " حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة ".

ما أحسن همة العاشقين والمحبين وما أعظمها
وما أعظم ثباتهم فى العشق علىمقياس وجهة واحدة
لا يتبدلون فى وقت من الأوقات ولايتغيرون
وإن كان أهل العالم كله يوجهون إليهم الملامة

ثانيا ـ لغة التعبير:

إن لغة التعبير والتصوير فى ديوان عبد الرحمن تغلب عليها البساطة والوضوح، والبعد عن التكلف والمجاملة، وقد تعمقت الفكرة مع هذه البساطة إلى أبعد حدود التعمق الذى تتجلى فيه عبقريته، ومع كل ذلك تستهويه النفوس، وتعشقه الآذان بما يضرب لها من أمثال واقعية، أو قريبة من واقع الحياة، وصروفها

وخطوبها، أو من مباهجها وأفراحها، ويعتبر فى ذلك اماما اقتدى به من جاء بعده من شعراء الأفغانية. وقد برع عبد الرحمن فى كل ذلك بسلامة لغته وتفكيره، واعتدال طبعه ورصانة أسلوبه، كما برع فى قول السهل الممتنع، وجزالة اللفظ، والمعنى الغزير، وبخلو لغته من التكلف والتعقيد.

ولم تكن لهجة عبد الرحمن ولغته مقصورة على لهجة واحدة من اللهجات الأفغانية العديدة، وإنما كانت خليطا من لهجات متقاربة متناسقة منسجمة، الأمر الذى يدل على أنه قد درس بدقة وتعمق وإمعان عديدا من الدواوين الشعرية والكت الأدبية كتبت بعديد من اللهجات الأفغانية، وتأثر بها تأثرا كبيرا وعميقا، ولهجته فى ديوانه، بل لغة ديوانه تمتاز كما قلت بالبساطة الشديدة من حيث سهولة ألفاظها، وقرب معانيها، وخلوها من التعقيد والتكلف والتصنع مع تعمق الفكرة التى تتجلى فيها عبقريته الشعرية والفكرية. كما برع فى نظم الغزل الصوفى بلغة سهلة سلسة بسيطة.

لم يقم أحد من الناس بوزن الدر والجوهر بالميزان
شعر عبد الرحمن در وجوهر فكيف تقوم بوزنه؟

ثالثا - روعة التصوير:

روعة التصوير البيانية التى عبر بها الشاعر عبد الرحمن عن أفكاره ومشاعره ضاربة فى البهجة والروعة إلى أبعد الحدود، فهو يستطيع أن يجسد الأفكار، ويشخص المشاعر، فيجعل القارىء أوالسامع يشعر بالمعنويات كأنها محسوسات يكاد يلمسها، كما أنه يستطيع بسهولة وبساطة أن ينطلق من المحسوسات إلى

المعنويات دون أن يشعر القارىء أو السامع بملل أو خلل، وهو يمزج بين الطبيعة والحياة والنفس الإنسانية فى صور أدبية وبيانية متكاملة تجمع بين عمق التأمل وروعة التصوير ودقة التعبير تنطوى على كثير من المنازع الفكرية والفلسفية. وقد شدا على أيكته شعراء آخرون ممن هتفوا بنغمات الحب فى روضات الشعر بلغة الأفغان فى روعة التصوير ودقة التعبير. ولنضرب لذلك مثالا من شعره. يتحدث الشاعر فى بعض مقطوعاته الشعرية عن تجدد الدنيا وتغير أحوالها فى كل لحظة، ثم ينتقل بعد ذلك إلى دعوة الإنسان لتأمل نفسه وما يطرأ عليها من تغير مستمر، ثم يربط دخول الجنة برضا الله لا بالعبادة، وذلك فى مثل هذا القول:

فى كل يوم من الأيام فى الدنيا تشرق شمس جديدة
والشمس التى تغرب اليوم ليست بمشرقة مرة ثانية
إن دخول الجنة لا يتم إلا بفضل من الله لا بعبادته
غير أنه يجب على كل عبد القيام بأداء مسئولية العبادة
انظر إلى غيرك مثلما تنظر إلى نفسك، وتأملها
فإن لكل إنسان نفسه ورغباته مثلما لنفسك رغبات
لذلك فإننى أنا عبد الرحمن لا أشتكى من أحد إلى أحد
لأنه ليس لى من غيرك أيها المحبوب صديق ولا عدو

فلنتأمل هنا كيف بدأ الشاعر من فكرة عامة هى تغير الدنيا لحظة بلحظة، ثم ربط بين التغير والجنة والعبادة ربطا محكما، ثم انتقل من ذلك إلى دعوة الإنسان لتأمل نفسه والنظر إلى مصلحة أخيه المسلم كما ينظر إلى مصلحة نفسه، وذلك بناء على مبدأ المساواة فى الرغبات والمتطلبات فى المجتمع الإسلامى.

رابعا - فن الحوار:

كانت للشاعر عبد الرحمن مقدرة فائقة فى فن الحوار، فهو لايكاد يطرق موضوعا من الموضوعات ويتحدث عنه حتى يعالجه فى حوار صريح وحديث جاد، يبين فيه الآراء ووجهات النظر المختلفة، وينتهى منه إلى الرأى الذى يريد بيانه، ويرغب فى تصويره، والتعبير عنه، وقد بلغت مقدرته فى الحوار مستوى عظيما ورائعا جدا، حيث يعبر بمقدرته الفائقة عن لواعج الحب فى نفسه فى الحوار الذى يدور بينه وبين محبوبه، فيصور ما يحسه من وجد على من يحب، ويتقسم قلبه نتيجة لهذا الحوار النفسى بين الحنين والأنين، وبين الحسرة والندامة، وبين البكاء والتفجع، وهذا كله على الوجه الذى يظهر لنا من خلال الحوار النفسى الذى يخاطب من خلاله محبوبه، ولاسيما أنه كان إلى صوفيته وزهده البالغين شاعرا مطبوعا، منحه الله مقدرة فائقة لتصوير حبه لكل ما هو حسن جميل، منجذبا بسجيته إليه، مقبلا بفطرته عليه، ومحبوبه هو الله، ومحبوبته هى الذات الإلهية العلية التى يشهدها عند سماعه من يشدو باسم هذه المحبوبة، ويصفها وصفا لعله خير ما يفسر به حال الذائق الواجد عند سماعه مثل هذا الحوار، وإن كان حوارا نفسيا يدور بينه وبين محبوبه. وذلك على النحو الذى يدل عليه قول عبد الرحمن فى هذه المقطوعة الشعرية التى يدور فيها الحوار بين الحبيب والمحبوب أو بين الجور والدموع:

كيف تقول لى سائلا: لماذا تذرف الدموع الساخنة
أفلا يبدو لك جورك وظلمك وإعراضك أيها المحبوب؟

أنت تجور وتجفو، وأنا أذرف الدموع الساخنة يا محبوبى أيها المحبوب إن لم يكن منك ذلك لن يكون منى هذا إن كان رسم كل معشوق وعادته مثل رسمك وعادتك فمن أين يمكن لطائفة العشاق والمحبين أن يفرحوا بالسعادة؟ إن خصالك هذه – أيها المحبوب – لو استمرت على هذا المنوال فإنه لايبدو لى دواء لعلاج القلوب المجروحة بآلام الحب الأول شدة غضبك والثانى قسوة طغيان أهل التنافس كل منهما يقوم بقتلى بالتناوب .. هذا حينا وذاك حينا آخر كل من سلك طريق العشق والحب وإن كان أفلاطون بعينه فإننى أراه مجنونا..سواء كان ذلك الجنون اليوم أو غدا افرض بأننى أصبحت – على كلام الناس – كلبا يحرس حارتك فإن الكلب لايجب أن يموت من طول عذاب الفراق والبعد لا أطلب شيئا أبدا يا عبد الرحمن لأنك أنت طلبى أيها المحبوب إننى قد رضيت بذلك، والأمر بعده متروك لرضاك أيها المحبوب

فقد عالج الشاعر فى هذا الحوار الجاد الذى يجرى بينه وبين محبوبه الأسمى، أو بين جور المعشوق ودموع العاشق حتى يصل منه إلى ما يريد الوصول إليه، وهو أنه ليس له طلب آخر غير معشوقه أو محبوبه، على النحو الذى ظهر لنا من خلال هذا الحوار.

خامسا - الحكم والأمثال:

تكثر فى الديوان الحكم والعبر والأمثال التى يصوغها الشاعر بوحى من التعاليم الإسلامية والخلقية، أو بوحى من فلسفته الصوفية، فتزيد شعره قوة فى التأثير والتعمق والجمال، فالحكمة فى موضعها، وكذلك الأمثال فى مواضعها تزيد المعنى قوة ووضوحا وجمالا، وتجعل الشعر قادرا بجماله على النفاذ إلى أعماق النفس البشرية والتأثير فيها. والشاعر عبد الرحمن يقتبس الحكمة الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المطهرة، ومن الأمثال الأفغانية الشعبية، ويتوسع فى بيان مدلولاتها، وهو فى كل ذلك شاعر أصيل، وصاحب فكر عميق، نلمس عنده الإحساس الصادق العميق، والعاطفة الصادقة الجياشة، والعقل الواعى اليقظ، والنفس الزكية الصافية، واليقظة الفكرية التى تستطيع بجدارة أن تبث الصفاء والنقاء فى نفوس الآخرين، وتشيع فيها البهجة والسرور، وتصحبه فى دروب من التأمل العميق، وآفاق واسعة من الفكر الرفيع، تعينها وتساعدها على تحقيق حياة أسمى وأنقى، والطموح إلى غايات أعلى وأرفع عن تلك الغايات المادية التى يعنو لها البشر فى هذه الحياة الفانية. ولا أريد أذكر هنا شيئا من أمثال الشاعر أو حكمه وعبره لأن القليل فى هذا المجال لا يدل على الكثير، والذى يقال فى موضوع لايمكن أن يدل على ما يقال من حكم وأمثال فى شتى الموضوعات، ومختلف المناسبات، إلا أن هذا لا يمنع من أن أذكر ثلاثة من الأمثلة فى الحكم والأمثال أحدها من القرآن الكريم، والآخر من السنة النبوية الشريفة، والثالث من الأمثال الأفغانية الشعبية كما يظهر ذلك من الأمثلة التالية:

١- القرآن الكريم: فقول عبد الرحمن فى مقطوعة من مقطوعاته الشعرية التى يقول فيها:

إن مصير كل من يأتى إلى هذا الوجود موت وفناء

تعال، وانظر إلى ما تقوم به الدنيا من الغارات والنهب

هذا القول أو بالأصح الشطر الأول منه مأخوذ من قوله تعالى فى سورة الرحمن الآية رقم ٢٦: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُوْ الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ** ﴾.

٢- الحديث النبوى الشريف: وقول الشاعر عبد الرحمن فى المقطوعة الشعرية السابقة نفسها:

لكل مريض فى هذه الدنيا دواء لشفائه

إلا أنه لادواء لمن مرض بمرض حب الدنيا

فالنصف الأول أو الشطرة الأولى من هذا القول أو بيت الشعر مأخوذ من هذا القول المأثور: " لكل داء دواء ".

٣- المثل الأفغانى: ومن أمثاله وحكمه الأفغانية الشعبية قوله فى المقطوعة الشعرية السابقة:

ستظل العشرة عشرة، والعشرون عشرونا حتى القيامة

لم يكمل أحد من الناس العدد والحساب فى هذه الدنيا

قوله هذا مأخوذ من هذا المثل الأفغانى المشهور: " لس به لس وي، شل به شل "

سادسا - الأمور البسيطة:

لقد استطاع الشاعر عبد الرحمن بابا بن عبد الستار فى كثير من الأحيان أن يجعل من الأمور البسيطة التى تمر تحت أعيننا وبصرنا موضوعا شعريا يليق بشعره، فشعره يتناول الحياة فى الكون والطبيعة بكل جوانبها ونواحيها، وعبقريته الشعرية تستطيع أن ترفع بعض الموضوعات من مستواها التافه إلى مستويات فنية عالية تجعلها جديرة بأن تقرأ، وأن تثير التأمل فى النفس، والفكر فى العقل، وليس هذا غريب على مثل هذا الشاعر الأصيل، كما أننا لسنا بحاجة إلى أن نبرر مثل هذا التصرف من الناحية الفنية، فهو كالمصور الفنان البارع الذى يتخذ أمورا تافهة موضوعا للوحاته، فيرفعها بفنه وبراعته إلى مستوى بحيث يفرض على الأعين والأبصار تأملها، وعلى العقول والأفهام تلقيها والتأثر بها. ومن ذلك وصف الشاعر للواعجه وعبراته وزفراته وآهاته وغير ذلك مما لقيه فى محنته، وهى الحب الذى كان كذلك فى أول عهده، ثم أصبح أعظم منحة من محبوبته، وهى الذات العلية، فأبياته الشعرية وما فيها من الفنون البديعية تدل دلالة صريحة على أن عبد الرحمن كان شاعرا صاحب قريحة وسليقة، وكان الشعر عنده أداته المفضلة للتعبير عن ذوقه الشعرى والصوفى، ووجده القلبى، ولوعته النفسية يجعل من الصعب سهلا مذللا، ومن السهل البسيط جميلا مجللا، ذا رونق وجمال ورواء. وديوانه يعد تحفة أدبية رائعة له خصائصه الفنية بكل ما فيه من الألفاظ والعبارات، ومن المعانى والدلالات، ومن القرائن والمناسبات تجعل من الموضوعات العادية موضوعات فنية عالية جميلة، وترفع من شأنها حتى تليق بشعره فى ديوانه.

مرة أخرى وقع قلبى أسيرا فى يد الضفائر السوداء
واحتل جيش الحبش يساري ويميني
أطلقت سهام الدعاء والتضرع فى كل جهة
إلا أنه لم يكن فى السهام سهم قد أصاب الهدف

سابعا - الأسلوب والسليقة:

الشاعر عبد الرحمن متنوع الأساليب، ومتنوع المسالك والطرق، وقد هدته سليقته الشعرية إلى نظم الشعر بصور شعرية متباينة، وأساليب وطرق متنوعة، تتلاءم مع عديد من المذاهب الفنية التى ظهرت خلال القرون التى سبقت قرنه الذى كان يعيش فيه، فعنده الشعر الذى يمكن أن يعد من الشعر الواقعى، وعنده الشعر المثالى، وعنده الشعر الرمزى، بل عنده شعر اللاوعى. ذلك لأنه قد ذاق من أحوال الحب وأهواله أكثر من غيره من العاشقين والمحبين، فكان من الطبيعى أن يصطنع فى هذه الأهوال والأسقام والأحوال أساليب متنوعة ملائمة لطبيعة الموضوعات التى أراد تصويرها والتعبير عنها، وقد امتاز أسلوبه فى جملته، وفى أكثر تفاصيله برقة اللفظ، ودقة المعنى، وعمق الفكرة، وجمال الصورة وروعتها التى كثيرا ما يتخيلها الشاعر تخيلا مبدعا، ثم يصورها بأسلوبه تصويرا رائعا جميلا، وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على أن عبد الرحمن كان صاحب ذوق مرهف فى تنوع الأساليب والمسالك والطرق،حيث إنه قد تقلب فى أطوار الحب الإلهى حتى بلغ فى ذلك مبلغا بعيدا، وعرف من دقائق الحب وحقائقه ورقائقه أشياء كثيرة، لم يجد خيرا من هذه الأساليب الرائعة التى يعبر بها عن حبه، وأطواره، ويتخذ من هذا الأسلوب أو التعبير سبيلا إلى إبراز ما كمن فى أعماق

قلبه من أطوار حبه، الأمر الذى جعله ينظر إلى ذاته على أنه رائد الأسلوبيين، وإمام العارفين، إذ قصر ديوانه على التعبير عن حبه الإلهى، وتصوير أهواله وأشواقه وأذواقه فى طريق هذا الحب الإلهى، وما انتهى إليه من فتوحات إلهية، وإلهامات روحية، وذلك فى أساليب رمزية قوامها الألفاظ الغزلية والخمرية، وهو إنما يفعل هنا ما فعله الشاعر العربى المصرى ابن الفارض وغيره من إيثار أساليب الإشارة على العبارة، والتلويح على التصريح، كما فعل ذلك أيضا كل من الشاعرين الأفغانيين الصوفيين جلال الدين البلخى (الرومى) فى بعض مقطوعاته الشعرية، من المثنوية وغيرها، والسنائى الغزنوى فى بعض أشعاره فى" حديقة الحقيقة " وغيرها، علما بأن لغة هذين الشاعرين الأفغانيين تختلف عن لغة الشاعر عبد الرحمن موضوع البحث.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الصوفية وأهل الزهد الإسلامى هم أول من قال بأدب اللاوعى، فقد أثر عن الكثيرين منهم نظم الشعر فى حالات الوجد الصوفى، وفى حالات الفناء عن الذات التى كانوا يخرجون فيها عن العقل الواعى. ومما هو جدير بالذكر أيضا أن الصوفية بقولهم الوحى والكشف قد فتحوا السبيل أمام ألوان جديدة من التفكير فى طبيعة الأدب والفن، بعد أن ظلت فكرة المحاكاة التى قال بها أرسطو مسيطرة على مفاهيم النقد الأدبى قرونا عديدة. وقد سبق الصوفيةُ بذلك فرانسيس بيكون الذى صنف المعرفة البشرية على أساس ملكات إنسانية ثلاث، هى العقل والذاكرة والخيال، وجعل الخيال مصدر الشعر، فكان ذلك خروجا على مذهب المحاكاة الأرسطى فى النقد الأدبى، وسبقا على فرانسيس بيكون فى تقسيم المعرفة البشرية.

وقد يكون من الطريف أن نذكر هنا مثالا لشعر الوجد الصوفى عند عبد الرحمن، وهو الذى يمكن أن يعد من شعر اللاوعى فى الأدب الصوفى الإسلامى. قال فى الخمر والسكر والشفائف:

إننى سكران من " شدة نشوة " شراب شفائفك العذبة
لن يوجد " فى العالم " سكران ونشوان آخر مثلى
من أجل حبك المفرط – يا حبيبى – أمد يدى إلى الوردة
كالغريق الذى يمد يده حتى إلى النبات على أمل النجاة
هل هذا الذى أراه احمرار وجهك الجميل وبياضه الهادىء
أم مطر الدم الممزوج بالماء يتساقط دائما على وجهى ؟
ما هو الأثر الذى يمكن أن تتركه فيك دموعى الساخنة؟
إن النار المشتعلة تزداد اشتعالا وقوة بدموع الكباب !
على العشاق والمحبين أن يفتحوا أعينهم فى أمورالعشق
لأنه ليس هذا وقت للنوم، بل إنه مقام لانحدار الدموع
إن السبب الحقيقى فى عدم تمكن أحد من رؤية الملاك
هو أنه يلف وجهه فى الحجاب حياء من جمال وجهك
عند ما يطلع النهار ويقبل مضيئا فيخجل منه القمر
و من هنا نراه يعيش دائما فى ظلام الليالى المظلمة
خذ الحجاب وقم بتسويد وجوه هؤلاء الناس جميعا
الذين يمدحون جمال الشمس فى عهد جمال وجهك

لست أنا الوحيد الذى يلقبك بالمحبوب أيها المحبوب
إن الله هو الذى منحك بهذا النوع من الخطاب العظيم
إن خط الرسم والوشم على صفحة وجهك الجميل
كعلامات الإعراب فى صحائف القرآن الكريم
ليس فى مقدور عبد الرحمن أن يعد مزايا حسنك الرائع
لأنه حسن بلا حدود، لاتعد مزاياه الكثيرة ولاتحصى!

فهو فى هذا الغزل يتحدث عن الجمال الإلهى وحسنه البهى على أنه جوهر السكر والنشوة، وأن كل ما سوا ذلك عرض زائل فان ليس بباق دائما، ولكن اصطنع لذلك ألفاظا وعبارات وتعبيرات جعلته كأنه من قبيل الشعر الغزلى العذرى الإنسانى، إلا أننا إذا تأملناه وتدبرناه فى ضوء ما يقوله الصوفية وأهل الزهد الإسلامى من تفضيلهم الأسلوب الرمزى على أسلوب التصريح استطعنا أن نفهم الألفاظ والعبارات والتعبيرات الغزلية الحسية، أو الخمرية الواردة فى هذا الغزل على أنه من قبيل شعر اللاوعى الصوفى، أنشده ناظمه عبد الرحمن وهو فى حالة الوجد الصوفى، فى حالة الفناء عن الذات التى كان يخرج فيها عن العقل الواعى. فهذه الألفاظ والعبارات كلها إنما هى من قبيل الرموز أو التلويحات التى قالها الشاعر وهو فى حالة اللاوعى.

ثامنا - مقدرة الشاعر العجيبة:

للشاعر الوجدانى عبد الرحمن بابا مقدرة عجيبة على أن يتناول فى شعره الموضوعات المطروقة فيجعل منها موضوعات حية كأنها موضوعات شعرية

جديدة يعرضها على القارىء أوالسامع لأول مرة، فكأن القارىء يقرأها أو يسمعها لأول مرة فى حياته. لقد كان ينظم الشعر حول موضوعات مطروقة قديمة، فيدخلها بمقدرته الفنية العجيبة ضمن نطاق إبداعه العجيب. والأمثلة لذلك كثيرة متوفرة، فعندما تقرأ ديوانه كأنك تقرأ كلاما منظوما صادر عن شاعر أفغانى عذرى، أحب فتاة من الفتيات الفاتنات، وملك عليه جمالها حسه وقلبه وعقله، فإذا هو يصور جمالها، ويعبر عن حبه ووده لها، وافتنانه بجمالها، وحنينه إلى لقائها، وأنينه من فراقها وبعدها، ولوعته من صدها، وسعادته بقربها، وبهجته لوصلها ولقائها، فيصطنع الألفاظ والعبارات والتعابير الدالة على ذلك، فإذا هو يرسلها لآلىء منظومة يتألف منها عقد قصة حب بدأ فى قلب صاحبه وفؤاده إنسانيا كما يبدأ كل حب فى كل قلب من القلوب، ثم ما لبث هذا الحب أن تطور فإذا هو حب إلهى عظيم، وإذا هو هذا الحب الإلهى العظيم ينتهى بصاحبه إلى أسرار إلهية صادقة صافية، وإلى أنوار قدسية مشرقة، فإذا هو الشاعر يعبر عن هذه الموضوعات المطروقة مرارا وتكرارا، ويصورها كأنها موضوعات جديدة يقرأها القارىء أو يسمعها لأول مرة، منظومة فى قطعة شعرية.

وترجع أهمية عبد الرحمن العجيبة إلى أنه قد خرج بمقدرته العجيبة بالغزل الأفغانى عن موضوعه التقليدى، فتناول فى غزلياته أغراضا متنوعة، فكان يشارك فى علاج أدواء عصره، فيحذر من النفاق والرياء، ويشير إلى ضياع الأخلاق وفساد الضمائر والذمم، كما استطاع أن يمزج فى شعره بين الغزل البشرى والغزل الصوفى بحيث استحدث نوعا من الغزل يمكن تفسيره على المعنيين، ومن هنا قد ذهب بعض شراح ديوانه إلى القول بأن غزلياته لاتجب أن تؤخذ على معانيها الظاهرية، إذ هذه المعانى غطاء أو رمز تستتر دونه معان عميقة أخرى أبعد منالا،

وأقوى حجة، وأشرف غرضا، وأروع مقصدا، وأعمق غورا، فهو فى هذا المجال كالسنائى الغزنوى، وجلال الدين البلخى (الرومى) والحافظ الشيرازى، وابن الفارض العربى المصرى وغيرهم من شعراء الصوفية الكبار.

لقد أشرق القمر من الأعلى والشمس من الأسفل
إنه وجه المعشوق يوجد مشرقا فى الأعلى والأسفل
إن الشمس والقمر كلاهما يتقلبان فوق سريرى
وذلك لأجل أن يضع حبيبى رأسه على الوسادة

تاسعا - موسيقى الشعر:

كان عبد الرحمن بابا يطرب للموسيقى، ويجيد العزف على بعض الآلات الموسقية، كما يقول ذلك الأستاذ حبيب الله رفيع فى مقدمة ديوان عبد الرحمن ١٨ - ٢٤، طبعة كابل سنة ١٣٥٦هـ ش/ ١٩٧٧م، ومولانا عبد القادر فى مقدمة ديوان عبد الرحمن ٢٦، الطبعة الثانية، بشاور ١٩٨٧م، كما يؤيد ذلك كل من البروفيسور عبد المجيد الأفغانى،والأستاذ محمد جعفر الأسكزى، والشاعر الشعبى عجب خان. فقد عكف عبد الرحمن - كما يقولون - على الموسيقى والسماع، واقترن الشعر عنده بالموسيقى ونغماتها العذبة، فكثيرا ما نظمه وأنشده فى مجلس السماع والطرب، وكثيرا ما سمعه مقترنا بالإنشاد والترتيل والتبتل والنغم، وقد تجلى أثر هذا الإحساس الموسيقى فى شعره، فقد استطاع أن ينظم غزليات الديوان على أوزان عديدة، عربية وأفغانية، وهو فى نظر الأستاذ عبد الحى حبيبى أحد الشعراء الأفغان العروضيين المشهورين فى عصره، ومثل هذا التوسع

فى الأوزان، والتنوع فى الأنغام يشهد له بالمهارة والخبرة الفائقة فى فن العروض العربى والأفغانى.

وقد استطاع عبد الرحمن أن يجعل مقطوعاته الشعرية بهذه الأوزان العروضية العربية والأفغانية جميلة الوقع، سائغة الأنغام، كما استطاع أن يوفر الموسيقى المناسبة لشعره بوسائل عديدة ومتنوعة، ونراه فى ديوانه أحيانا يختتم الأبيات الشعرية بمقاطع صوتية لامعنى لها، ولكنها ذات تأثير موسيقي فى المشاعر والأحاسيس والعواطف، وذات وقع جميل فى الأسماع والقلوب. ولعل أدل ما يدل على ذلك هو أن عبد الرحمن إنما كان شاعرا صوفيا وزاهدا تقيا قضى حياته الروحية فى رياض القلب وجناته مرتلا أناشيد الحب، ومتبتلا إلى من أحب، فإذا بهذا الذى رتل أنشود الحب وتبتل بها متضرعا قد فاق كل العشاق والمحبين، وترددت أناشيد وجده وذوقه فى كل الأودية والآفاق فى الأرض الأفغانية، ورددها كل من له قلب من أصحاب الأذواق فى الأوزان والأنغام، واتخذوا ما اصطنعه الشاعر العاشق عبد الرحمن فى أوزان الشعر وسيلة للتجديد فى موسيقى الشعر الأفغانى فى عصره.

والدليل على أنه كان يجيد العزف على بعض الآلات الموسيقية فى نظر هؤلاء العلماء الأفاضل، إشارات وتلميحات وتصريحات وردت فى أشعاره تشير إلى إجادته الفن الموسيقى،و ذلك بالإضافة إلى هذه المقطوعة الشعرية الصريحة التى أنشدها الشاعر ووردت فى ديوانه:

أمنية الرقص

أيهـا الســاقى نــاولنى وأعطنى كأســا لــلرقص
أتمنى مـن أعمـاق القلـب والفـؤاد دائمـا أن أرقـص
فقـال الساقى: ساعة الفـرح ستحل عليــك الآن
فقــد أعطــانى المغنــى رســالة بــالأمر لــلرقص
إن أستاذى المـاهرهو الـذى علمنـى فنـون الرقــص
وشـرح لى كـل وتـر مـن أوتـار مقامــات الرقــص
يبـدو ويظهـر رأسـه فـوق السـماء التاســعة عاليــا
كــل مــن تم تعليمــه وإرشــاده بــإعلام الرقــص
كـل مـن تتجلـى لــه جلــوة مــن أنــوار المحبــوب
لايجب عليه أبدا ولايــلزم أن يتغـذى بغـذاء الرقـص
كـل فـرد مـن أفـراد بنـى البشــر لايليــق بــالرقص
بل اللائق لذلك هو الــذى يتـم عليـه إنعـام الرقـص
إلى حين وجود الروح فــى الجسـم يـا عبـد الرحمـن
لن يتمكن أحد من إكمـال وإتمـام الحقيقـة للرقـص

قدم الأستاذ حبيب الله رفيع وذكر هـذه المقطوعـة الشـعرية دليـلا علـى أن الشاعر عبد الرحمن كان يجيد العزف علـى الآلات الموسـيقية، ولكننـا عندمـا نمعـن النظر فى المصطلحات الصوفية ندرك أن هذه الأبيات الشعرية وما يتردد فيهـا مـن مصطلح الرقص الصوفى وغيره من المصطلحات الصوفية إنما هى مـن قبيـل الرمـوز والتلويحات التى اصطنعها الشاعر الصوفى ليعبر بهـا عـن ذوقـه الصوفـى، ووجـده

القلبى. والرقص كما هو معروف عند السادة الصوفية يرمز إلى حركة السالك أو الصوفى الناشىء وسيره فى طريق التصوف.

عاشرا - السخرية والتهكم:

نجح الشاعر الصوفى عبد الرحمن بابا إلى حد بعيد فى استخدام السخرية والتهكم لتحقيق أهدافه الإصلاحية أوالفنية أو التعليمية أو الصوفية أو الفلسفية، والسخرية اللاذعة لاتقل تأثيرا عن أسلوب القوة والإنذار الصريح، والتهكم الشعرى لا يقل إثارة عن إثارة التحكم الواضح الصريح. وقد عرف الشاعر عبد الرحمن كشاعر من كبار الشعراء الأفغان، ورائدا من رواد الشعر التعليمى والخلقى، كما عرف كصوفى ينظم الغزل الصوفى، وكان الشعر التعليمى مجالا رحبا تجلت فيه عبقريته ومقدرته فى استخدام أساليب السخرية وأنماط التهكم، لقد استعان فى هذا المجال بثقافته الواسعة، وفهمه العميق لمعارف أهل زمانه. وأسلوبه فى السخرية والتهكم لايخرج عن الإطار الإسلامى، والخلق الأفغانى، وهذا النوع من شعره يكشف أيضا عن خبرته بالنفس البشرية، ومقدرته على سبر أغوارها، وتصوير نوازعها الخيرة والشريرة،الطيبة والخبيثة على السواء. ولننظر مثلا إلى حديثه عن الملق والتظاهر والرياء، وأثر ذلك فى الناس، قال:

فى الظاهر تقول ذاكرا بلسانك مكة والمدينة
وتنكب ملقيا بكامل جسمك على ما حرمه الله
تقوم يوميا بالمراقبة معلقا برأسك كالبرعومة
ومتاع قلبك فى السر والخفاء منقوش بالألوان

تطلب بإلحاح شديد قباء من الحرير فلا تعثر عليه
فلبست رغما عنك عباءة الدراويش من الصوف
هل عبادتك لله أكثر من المعاصى أم المعاصى؟
انظر فى المرآة لترى ذلك فى نفسك بأقل تقدير
معروف أن الله قد حرم الحقد والعداوة والقتال
ولكنه لم يحرم الحقد والعداوة مع النفس والشيطان
إن امرأة طاهرة متقية صالحة زاهدة عابدة
خير وأفضل من الفساق الفجرة من الرجال
مهمة الشجعان من الفتيان مقاومة النفس
لا القيام بأعمال التزيين والتجمل بالحلية كالنساء
وليكن مائة رجل فاسق ممن لادين لهم ولاخلق
فداء فردة حذاء امرأة عفيفة من ذوات الدين
أصحاب الأعمال الحسنة أفضل وإن كانوا صغارا
من االرجال ذوى الأعمال السيئة وإن كانوا كبارا
العاشق المعمر ابن مائة سنة، فى نظر عبد الرحمن
طفل رضيع صغير كأنه قد ولد ليلة البارحة

هذا مثال واحد من مئات الأمثلة التى عالج فيه الشاعر أمراض المجتمع الإنسانى على هذا النحو البارع. وخلاصة الكلام أن عبد الرحمن لم يكن مصلحا وفيلسوفا ساخرا فحسب، وإنما كان كذلك حكيما عمليا، لقد تقبل الحياة وتفاعل معها، واستخدم السخرية ضد كل من خالف سنن الحياة.

المعانى الإنسانية فى شعره:

عيشة الزهد والتقشف:

التدين والزهد والتقشف أحد أسباب سعادة الشاعر عبد الرحمن بابا فى حياته الروحية، وهو ينظر إليها على أنها من صميم الدين والعقيدة الإسلامية فلا يجوز التظاهر والرياء فيه وفى الأعمال الصالحة الأخرى، وقد تكرر هذا المعنى فى ديوان شعره مرارا، من ذلك هذا البيت من شعره:

ما ألبس الله أحدا من الناس لباس الرياء والتظاهر
إن عبد الرحمن قد ربط عمامة عوجاء تبخترا وهو درويش[1]

القناعة كنز:

القناعة فى نظر شاعرنا عبد الرحمن كنز لا يفنى، ويدعو الله أن يرزقه القناعة لأن حقيقة الحياة فى نظره هى القناعة والبساطة، وقد صور ذلك فى هذا البيت من شعره:

رباه، امنح عبد الرحمن كنز القناعة
ليكون غنيا ثريا بلا ملك وحشم[2]

---

(١) د رحمان بابا ديوان ١٩١، طبعة پشتو تولنه، كابل ١٩٧٧م

(٢) المرجع السابق ٢٦٢

العزيمة والتوكل:

الاعتماد على الله، والثقة فيه، والتوكل عليه فى الأمور العظيمة أحد المعانى التى صاغها عبد الرحمن فى روائع من شعره فى مواضع عديدة من ديوانه الشعرى منها هذا البيت الذى يصور فيه هذا المبدأ فى صرخة من ندائه إلى ربه:

رباه، لا تجعلهم من البائسين، أولئك الأشخاص
المؤمنين الذين اعتمدوا فى تحقيق آمالهم على كرمك[1]

الاحتياج:

الحاجة والاحتياج ظاهرة اجتماعية فى المجتمعات الإنسانية لايحس بها إلا المحتاجون وتتحول أحيانا إلى مشكلة تؤدى إلى الخصام بين الأفراد. يدعو عبد الرحمن ربه بألا يحتاج أحد إلى أحد فى قضاء حاجة أو أمر من الأمور، ويسكب هذا المعنى فى قالب لفظى جميل، ويقول:

أتوسل إلى ذلك الرب الجليل المنزه بعظمته
بألا تتوقف حاجة أحد عند أحد من الأشخاص[2]

---

(١) المرجع السابق ٢١٩

(٢) المرجع السابق ٥٠

حماية الأهل:

لا ينسى عبد الرحمن أهل قريته وعشيرته، ويتمنى أن يحفظهما الله فى أمان من الشدائد، وأن تكون فى حمايته ورعايته وتحت عنايته الكريمة، وقد عبر عن هذا المعنى، وألبسه ثوب الدعاء:

حفظك الله وحماك من كل اضطراب وحزن
يا عمران أهل بيتى وقريتى وعشيرتى[1]

الذرية الصالحة:

الذرية قرة أعين إن كانت صالحة سالكة سبيل المتقين، وقلب الأبوين مفطور على محبة الذرية، ومتأصل بالمشاعر النفسية والعواطف الأبوية لحماية الأولاد والرحمة بهم، والشفقة عليهم، والاهتمام بأمورهم، حيث إنهم أفلاذ الأكباد، وثمرات الفؤاد، إلا أن مصلحة الإسلام والعقيدة فوق كل المصالح والاعتبارات. لذلك نرى شاعرنا عبد الرحمن ينادى ربه ويدعوه بألا يرزق أما ولدا سيئا لا يتمتع بالخلق الإسلامى ولا يتحلى به، وقد صور هذا المبدأ فى هذا البيت من شعره:

لم يلد مولود سيء العمل والخلق من أمه
حيث يسيء إلى سمعة الوالدين وذكرهما[2]

---

(١) المرجع السابق ٢٧١

(٢) المرجع السابق ٦٦

الزهد والرهبانية:

شاعرنا عبد الرحمن الشهير بأب الأفغان كان زاهدا، وهو يحمل فى زهده معنى التعاون والبذل والإيثار، و لم يكن من صائدى الدنيا باسم الدين، وزهده لا يعنى أبدا الانقطاع عن العمل والجهد، بل ترفعا عن حطام الدنيا وغرورها الزائف، وهو يدعو بقوة إلى الاستفادة من دروس الحياة العملية، عملا بمبدأ لا رهبانية فى الإسلام. وهو ينظر إلى هذه الدنيا على أنها زاد المسافر فى رحلته إلى عالم الغيب، اسمعه حيث يقول:

جميلة جميلة هذه الدنيا
فى أنها زاد العقبى والآخرة[1]

البراءة من القومية:

وفى سبيل الدين والعشق الإلهى يتنازل عن القومية التى ينتمى إليها ويتبرأ منها إذا كانت تعارض العواطف والمشاعر الإسلامية، والانتماء القومى عند الأفغان مبدأ من المبادئ الاجتماعية التى يتمسكون بها، ومن الصعب التنازل عنها. وهذا الضرب من شعره كثير، ومنه ما لا يجاريه فيه إلا القليلون، اسمعه وهو يقول:

إننى عاشق، شغلى الشاغل مع العشق الإلهى وحده
لست من بنى خليل، ولا من الداودزية ولا من قبيلة مهمند[2]

---

(١) المرجع السابق ٥، طبعة پشتو تولنه، كابل ١٩٧٧م

(٢) المرجع السابق ٤٩، وپشتانه شعراء ١: ١٩٦

فأنت فى كل ذلك وفى غيره من شعره أمام منبر واعظ إسلامى وقور يرشدك إلى العمل فى سبيل الخير كما تدعو إليه تعاليم الدين الإسلامى، ولكن فى وعظه شاعرية جليلة عظيمة، ولحن شجى يسهل عليك مشقة الإصغاء إلى الواعظ ومواعظه، وفى نبرات شاعريته الحانية ما يحبذك ويجذبك إليه جذبا. فتصغى إليه مسرورا، وتشعر منه بنشوة خفية تملأ قلبك، وتحرك عواطفك نحو ما يدعو إليه.

الحالة السياسية فى أيامه وأثرها فى شعره:

عاش عبد الرحمن بن عبد الستار الشهير برحمان بابا فى العصر الذى لم تتمخض فيه ثورة كل من بايزيد أنصارى، والزعيم خوش حال عن نتائج سياسية ملموسة فى طرد الأجانب من الأرض الأفغانية، وفى قيام نظام سياسى خاص يتمتع بالاستقلالية والحرية، الأمر الذى جعله يتجه اتجاها انزوائيا على طريقة الفلاسفة المتقشفين، والزهاد المنعزلين، ومن هناك بدأ دعوته الإصلاحية والخلقية كشاعر حكيم يدعو إلى الفضيلة والتآلف والتوادد والتحابى، وإلى الاتحاد والوحدة وصولا إلى الغايات النبيلة بالتخلص من التسلط الأجنبى، والقضاء على مختلف ألوان الظلم والاستبداد والجبروت التى جعلت پشاور موطنه ضيقة عليه كالقبر الضيق الذى يتعذب فيه الإنسان بعذاب النار. وقد وفقه الله فى هذا الاتجاه إلى حد بعيد. وهو كمفكر مسلم لم يكن فى وسعه أن يقاوم الظلم والتسلط والجبروت عن طريق الثورة كما فعل الزعيمان الثائران بايزيد أنصارى وخوش حال خان، فقاومه بثورته الفكرية:

وليكن الأشراف والنبلاء من أمثال اورنك زيب وشاه جهان
نذرا وفداء للدراويش الزهاد من أمثال منصور النداف

وفى مجال السياسة فى أيام عبد الرحمن كان التنافس السياسى بين العناصر العرقية المختلفة ملتهبا، وبالأخص بين بنى الأفغان والمغول والسيخ.. كان المغول يتصرفون فى شئون الديار الأفغانية، وفى مصادرها المالية والاقتصادية، وفى آدابها الحضارية وفقا لأغراضهم وأهدافهم السياسية، والإقليمية. وكان السيخ يحاولون الاستفادة من الصراع الذى كان يدور بين الأفغان والمغول، واستثمار ذلك لمصلحتهم القومية.

أما الروح الأفغانية الأصيلة فكانت تتمثل فى عظمة الأفغان الإسلامية الماضية، وفى آمالهم فى استرجاعها، و لم تلبث أن تجسمت بروح الثورة الأفغانية يقودها كل من الإمبراطور شير شاه سورى (الغورى) فى داخل الهند، والزعيم الشاعر خوش حال خان فى پشاور، وزعماء القبائل السدوزية والباركزية فى كندهار، واليوسفزية فى پشاور، وكان أبرزهم وأقواهم الإمبراطور أحمد شاه الدرانى بطل معركة " پانى پت " الشهيرة.

وقد زادت الأوضاع السياسية سوءا واضطرابا بعد أن أعلن الزعيم الشاعر خوش حال خان الحرب ضد المغول الذين أعلنوا عداوتهم السافرة للأفغان. وشاعرنا عبد الرحمن قد عاش أكثر أيام عمره فى عهد أورنك زيب، حيث ولد فى عهد شاه جهان المغولى، وعاصر أورنك زيب، وقضى سنوات من عمره الأخيرة فى عهد الأمير معظم بن أورنك زيب الذى تربع على العرش سنة ١١١٨هـ (١٧٠٦م).

فهل أثر فيه كل ذلك؟ يبدو أن ذلك التأثير كان قليلا، لا يصل فى مجموعه إلى ما وصل إليه ذلك التأثير فى شعر خوش حال خان، ومن هذا التأثير القليل هذا البيت من شعره:

بسبب الحكام الظالمين وحكمهم الظالم
صارت الثلاثة.. القبر والنار وپشاور شيئا واحدا[1]

ومن ذلك التأثير القليل هذا البيت أيضا:

من المستحيل أن يعيش الإقطاعيون والدراويش فى قرية واحدة
أين مقام عزيز خان " الإقطاعى " من مقام الدرويش عبد الرحمن[2]

كان العصر الذى عاش فيه عبد الرحمن عصر الإقطاع، والنظام الطبقى.. طبقة الحكام والإقطاعيين، وطبقة الفقراء والعمال المعدمين، ويبدو من بيت الشعر الذى مرت ترجمته آنفا أنه مال إلى الطبقة الثانية المظلومة التى لم تكن ذات قيمة اجتماعية، بل كانت تستثمر لمصلحة الطبقة الأولى الحاكمة.

ومع ذلك أى ميله إلى طبقة الفقراء كان لحياته فى هذا المجتمع الطبقى تأثير فى شاعريته، ومسلكه الشعرى، وهو يستغرب كيف يجوز للأجير وصانع الأحذية والجزار والدهقان (الفلاح) الادعاء على أنهم من الأصول الأفغانية النجيبة..

---

(١) د رحمان بابا ديوان ٢٠٢، طبعة پشتو تولنه، كابل ١٩٧٧م

(٢) د رحمان بابا ديوان ١١٦، طبعة پشتو تولنه، كابل ١٩٧٧م

يتحول الجار والدهقان (الفلاح الأجير) فيه، إلى الأفغان
وهو فى الأصل إما أن يكون إسكافيا أو جزارا[1]

تصوفه وأثره فى شعره:

فى شعر عبد الرحمن بابا كثير من المعانى والمفاهيم الإسلامية، وقد جاءت مصبوغة بالصبغة الصوفية، شأنه فى ذلك شأن أكثر العشراء الأفغان فى عصره، ومذهبه فى التصوف يتميز أولا بالدقة والحيطة فى التعبير والتصوير، ويتميز ثانيا بالقدرة النادرة على استخدام المفردات الأفغانية والعربية والفارسية لتصوير موضوعات التصوف، ومسائل الفلسفة المعقدة، اقرأ هذا البيت من شعره وهو يقول:

إن هذا الكون الضخم قد خلقه الله من العشق
إن العشق أب لجميع المخلوقات فى هذا الكون[2]

قد ظهرت الصوفية فى الآداب كمظهر من مظاهر التدين والورع الشديد، ولكنها انتهت فى غلاتها بتعاليم بعيدة عن تعاليم السنة، وكان أول نشوئها كحركة زهدية مضادة لترف العصر، وكانت ترجع فى أساسها إلى نظام الزهد الإسلامى فى الإعراض عن زخرف الدنيا إلا أنها تجاوزت هذه الحدود فيما بعد.

---

(١) د رحمان بابا ديوان ٢٥٩، طبعة پشتو تولنه، كابل، و٣٧ من المقدمة، و١٠٩، طبعة پشاور، مقدمة سيد رسول رسا، و١٦٥، طبعة پشتو أكيدمى، پشاور، مقدمة مولانا عبد القادر.

(٢) د رحمان بابا ديوان ١٤، طبعة پشتو تولنه، كابل، وپشتانه شعراء ١: ١٩٥

وشاعرنا عبد الرحمن لم يكن من هؤلاء الغلاة، وقد استخدم التصوف والزهد سلاحا نبيلا للدعوة إلى الله، وإلى رسالة رسوله الكريم، كما استخدمه فى مقاومة البغى والعدوان المادى. وتصوفه لا يعنى الانقطاع عن العمل والانزواء فى ركن معبد من المعابد، بل يعنى الدعوة إلى الترفع عن حطام الدنيا وغرورها..

إن حب الحبيب هو الذى جعلنى أفقد عقلى جريا وراء الحبيب
فإذا كان هناك شخص يظن أن ذاك هو أنا، فلست أنا، إنه هو[1]

إن تراث الزهد والتصوف ثروة عظيمة فى الآداب الأفغانية، ومن يتأمل فى تاريخ الأفغان يتأكد له أن العقيدة الإسلامية والتصوف جزء منها وطلب أساسى فى حياتهم الأدبية والسياسية والاجتماعية، لم يتنازلوا عنه مهما كلفهم الأمر من الفداء والتضحية.

ولا ينبغى نسيان ما فى ديوانه من الغزل فى العشق الإلهى، ويبدو كما يقول البعض أنه متأثر فى ذلك بالشاعر الفارسى حافظ شيرازى.

وبالاختصار الشديد فإن الحب الصوفى فى تساميه نحو المطلق، وتوجهه إلى مقر علوى منزه يلوذ به، وعالم القلب والوجدان الذى لا يسافر ولا يجول فيه إلا أصحاب القلوب الغنية والوجدان، وقيمة الإنسان المسلم قضية كبيرة فى شاعرية عبد الرحمن وشعره الوجدانى، فالإنسان المسلم فى شعره قيمة لا تعلو عليها إلا قيمة جلال الخالق عز وجل، وقد أبدع عبد الرحمن فى عرض هذه القضية بلغة القلب، والعاطفة والوجدان، وحمّل شعره الوجدانى لهب مشاعره وأحاسيسه ليوقد

---

(١) د رحمان بابا ديوان ٢١٠، طبعة پشتو تولنه، كابل، وپشتانه شعراء ١: ١٩٦

فى صدور الآخرين نار الحيوية، والإبداع، ويحثهم على بناء شخصية إسلامية متكاملة فى الكيان الإسلامى فى منازل الأفغان.

اللغات:

كان يجيد أشهر اللغات الأدبية فى عصره، وهى:

١- اللغة الأفغانية (البشتونية = البختونية) وبها أنشد ديوانه الذى يعتبر توراة الأفغان وإنجيلهم.

٢- اللغة العربية، وقد درس علومها بجانب العلوم الإسلامية، ثم قام بتدريسها، ومن تلاميذه المشهورين الشاعر محمد يونس خان الذى رثاه عند وفاته.

٣- اللغة الفارسية، وتأثير هذه اللغة واضح فى ديوانه حيث لا يخلو بيت من أبيات شعره إلا وفيه كلمات فارسية.

٤- اللغة الأردية، وفى ديوانه مقطوعة شعرية أنشدها بهذه اللغة من لغات الهند المشهورة.